مجلة منتدى التوحيد

مجلة دورية شهرية تصدر عن منتدى التوحيد الإسلامى - العدد الأول - ذو الحجة ١٤٢٩

الوهم

د.أبو مريم

ارتكاس القدوة

د.أحمد إدريس الطعان

حقائق قرآنية

عبد الواحد

قل هذه سبيلي أدعو إلى الله

د.حسام الدين حامد

WWW.ELTWHED.COM

كلمة التحرير

مجلة منتدى التوحيد مجلة إلكترونية دورية تهدِفُ إلى بيان الإسلام ومحاسنه في حقيقته السمحة الموافقة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتنقضُ التيارات الفكرية المعادية للإسلام نقضًا علميًّا موضوعيًّا يَكشِفُ مغالطاتها وكذبَ دعاويها، وتردُّ الشبهات والأكاذيب المفتراة على الدين الحق، وتخاطب المجلة العقلاء الجادِّين من كل ملة وأمة، فتدعوهم لدراسة براهين الإيمان وحقائق الإسلام دراسة علمية منهجية تكشفُ زيفَ مناهج المخالفين للإسلام الذين يلحدون في أسماء الله وآياته الكونية والشرعية.

مجلة منتدى التوحيد
مجلة دورية تصدر كل شهر

تأسست عام ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

تصدر عن موقع منتدى التوحيد

www.eltwhed.com

العدد الأول
ذو الحجة ١٤٢٩ هـ

المراسلات

altwhed_com@yahoo.com

محتويات العـــدد

كلمة العدد ٣
قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ٥
حقائق قرآنية لا يقوم العلم التجريبي إلا بها ٨
ارتكاس القدوة ١٠
الوهم ١٣
مجازفة العقل ١٦
دليل الآخرة ١٩
تمكين المرأة من منصب مسؤول عن التمكين ٢٤
قصص وطرائف ٣٠
مناظرة مفحمة لأهل الإلحاد ٣١
كذلك سخرناها لكم ٣٣
من أقوال السلف ٣٧

كلمة العدد

لَمْ يكنْ الحوارُ في يومٍ مِنْ الأيَّامِ بوسيلةٍ مستغنًى عنها في تبادلِ الأفكارِ، وتمحيصِ المعلوماتِ، ومقابلةِ الخِبْراتِ والقناعاتِ الذاتيةِ المكتسبةِ لدى الفرد على مجموعِ خِبْراتِ الآخرين، فتتولدُ القَناعاتُ وتُوثقُ الخبراتُ بأدلة يجمعها صاحبها بناءً على ما ثبتَ عنده مِنْ الدليلِ، وهى مُمارسةٌ عقليةٌ من بين أهدافِها الطلبُ المتبادَلُ للتَّصحيحِ والمقارنةِ، و التوصُّلُ بنيّةٍ سليمةٍ واضحةٍ لمعرفةِ الحقائقِ المجردة ، والتي قد تُغطِّيها عند بعض أطرافِ الحِوارِ قِلَّةُ الفهمِ، وعَوارُ النفوسِ، والانتصارُ للرأي، واللَّجاجَةُ في العرضِ والطلبِ. وهى آفاتٌ تتلاشى أثناءَ الحواراتِ المنضبطةِ وتنكمشُ؛ فلا يبقى لها أثرٌ إنْ كان الحرصُ على الفهمِ الصحيحِ هو الإطارُ العامُ لتلك الممارسةِ الإنسانيةِ الراقيةِ. وحين ينضبطُ الحوارُ بأصولٍ منهجيةٍ تعتمدُ فى مقامِها الأوَّلِ على الإيضاحِ والاستيعابِ، والصدقِ مع النفس في التعاملِ مع المطروحِ، فإن النتيجةَ الحتميَّةَ المرجوةَ هي خضوعُ أطرَافِ الحِوارِ لسلطانِ الدليلِ وقوةِ البرهانِ، وقَبُولُ البديهيَّاتِ، والنَأْيُ بالذاتِ عن السَفْسَطَةِ، وتركُ عادةِ التَّتَرُّسِ خلْفَ فُقَّاعاتِ الجَدَلِ لتمريرِ الأخطاءِ وردِّ المثبت.

وهاهنا شبهةٌ حولَ (امتلاكِ الحقيقةِ) قد تُحيطُ بمفهومِ الحوارِ، وربَّما أُسِيءَ فهمُها أحيانًا لتُستخدم وسيلةً للتشنيعِ على الآخرين أو زعزعةِ معرفتِهم بالحقيقةِ وتمكنِهم منها وامتلاكِهم لها، وهذا ما قد يُقَوِّضُ الأساسَ الذي تُعقدُ لأجلِه مِثْلُ هذه الحواراتِ إن لم يُفهمْ فى إطارِهِ البديهِيِّ ، فالصحيحُ أنَّ الحقيقةَ لا يملِكها أحدٌ، بل هي سلطانٌ قائمٌ بذاتِه يُخضِعُ جميعَ الأطرافِ لقوَّتِه، ويملِكُ العقولَ بسُطُوعِه وجلائِه الذي يتفقُ مع الإدراكِ السليمِ، والوعي الناضجِ. وحينَ يَدَّعِي طرفٌ أنَّه يملِكُ "الحقيقةَ" فهو لا يعني سوى أنَّ "الحقيقةَ" هي التي تملِكُه فكريًا، وتُشبِعُه عقليًا، وتَسكنُ نفسُه لها بالاطمئنان، ويتبنَّاها بيقينٍ راسخٍ يُوْرِثُه خضوعًا لسلطانِها، وانسياقًا لحتميِّةِ التصديقِ بها. فالحقيقةُ كينونَةٌ قائمةٌ بذاتِها وإنْ

لَمْ يدرِكْها بعضُ الناسِ. وعدمُ إدراكِهم لا يعني نفيَ وجودِها أو التشكيكَ في قيْمتِها لمجردِ رفضِهم لها، وهو المنحَى الذي تتخذُه بعضُ الحواراتِ العقيمةِ؛ فتنتكِسُ وتتحولُ إلى مجردِ حَلَبةٍ تتصارَعُ فيها الكلماتُ والأشباحُ، فتُطِيْحُ بكُلِّ الثوابتِ والمفاهيمِ الصحيحةِ لصالحِ العَبث ، وذلك حين يَجنحُ الإنسانُ للتملصِ من قُيودِ العقلِ والمنهجيةِ المُثمرةِ ، انتصاراً لما أُشربت نَفسُه من كأسِ هواه المَريرِ ، وإذلالاً لنفسه وتحقيراً لأدوات إدراكه ، حين تصبحُ الحقائقُ عِندَه هى مَجموعُ ما تَقبلُه نَفسُه ، وإن خالفَ بذلك القَبول كلَّ ما قامَت عليه المعارفُ من بديهيات.

ثمَّ إنَّ الحواراتِ التي تعتمدُ في أصولِها على مقابلةِ البرهانِ والدليلِ بممارسةٍ تتَّسِمُ بالسلبيةِ الفكريةِ لا تخلِقُ حواراً بالمعنى الاصطلاحيِّ أو التطبيقيِّ للكلمةِ، فالفكرُ يقومُ على خطواتٍ لها استدلالاتٌ تنبُعُ من مجموعةٍ مفهومةٍ من المقدِّماتِ والنتائجِ، قد تَرقى تلكَ الخُطواتُ لتصلَ بالمُحتوى إلى مَرتبةِ البَديهي أو المَعلومِ بالضَرورةِ، أو قد تَحتاجُ لأن تُثبتُ نفسها بدليلٍ يُضْفِي عليها المصداقِيَّةَ المطلوبةَ، كحدٍ أدنى يُؤَهِلُها لأنْ تتحولَ إلى قناعاتٍ إيجابيَّةٍ فاعلةٍ تُلزِمُ أصحابَها بتبعاتِها العقديَّةِ والعمليَّةِ. ومن المفتَرَضِ أنْ يُقابَلَ مِثلُ هذا البناءِ الفكريِّ أثناءَ الحوارِ بما يشبهُه، إمَّا بتسلسلٍ نَقْضِيٍّ في الاتجاهِ المُعاكِسِ لبناءِ المخالِفِ ، أو ببناءٍ مَنهَجي أعلى قيمةً وأغلى كُلْفَةً وأقربَ للعقلِ من بناءِ المخالفِ، فيمكِنُ للعاقلِ حينها أنْ يُرَجِّحَ بينَ موقِفَيْنِ لهما رصيدٌ من المنهجيَّةِ ويملكانِ أصولاً ونتائجَ. أما أن يُقابلَ الفكرُ بحالةٍ من الـ"لا فِكْر"، أو بحالةٍ من السلبيَّةِ الفكريَّةِ التي يتبناها أصحابُها لِتكريسِ البطالةِ العقليَّةِ لِتُولِّدَ لديهم إحساساً زائفاً من القناعةِ.. مفادُه: أنَّ الموقفَ الفكريَّ قد يُبنى على مجردِ المخالفةِ للآخرين دونَ الحاجةِ لِتقديمِ الدليلِ اللازمِ لِتَوَلُّدِ مِثلِ هذهِ القناعةِ! فإنَّ هذه المقابلةَ لا يمكنُ أنْ تسمَّى بالحوارِ، ولا أنْ تصلَ -في حالِ انعقادِها- إلى أيةِ نتيجةٍ ذاتِ قيمةٍ تُضيفُ علماً أو تُقوِّضُ جهلاً، إذْ أنَّ "الجهل" في حدِّ ذاتِه أصبحَ موقفاً له قيمةٌ عندَ صاحبِه.. لمجردِ أنَّه لا يُريدُ أنْ يَعْلمَ، أو أنَّ تبِعاتِ الإذعانِ للعلمِ الضروريِّ يدخلُ في جُملةِ ما يخالفُ هواه.

إنَّنا ندعو مِنْ خلالِ هذا العملِ الذي نقدمه بين أيديكُم إلى تحويلِ الحواراتِ المنهجيَّةِ إلى منْفَذٍ طبيعيٍّ للنفوسِ والعقولِ، وفرصةٍ لتَتَبُّعِ آثارِ الحقِ، لا لتسفيهِه، بلْ لاتخاذِه عقيدةً ومنهاجاً. ندعو لأنْ يتبنَّى أصحابُ العقائدِ المختلفةِ والأفكارِ المتباينةِ قناعاتٍ لها أُسُسٌ منهجيَّةٌ يُمْكِنُ البناءُ عليها، وتحييدُها لِلدرجةِ التي تُجبِرُ المخالفين لهم على الإذعانِ لِسلطانِها. ندعوهم لتبنِّي منهجٍ حواريٍّ مبنيٍّ على الانتصارِ للحقائقِ والعلمِ، لا أنْ نكسوَ العلمَ برداءِ الجهلِ توسلاً لتزييفِ القناعاتِ، وتسكينِ الضمائرِ، وافتعالِ المواقفِ الفكريَّةِ التي لا تَحْمِلُ أيَّةَ مِصْدَاقِيَّةٍ.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ

هل في الدنيا كمثل ديننا ؟!

أيُّ مذهب جُعلت الدعوةُ من ثوابتِه والتعلمُ من واجباته ؟!

وأيُّ دين يبث في أهله الثقةَ كشأن دِيننا !!

وأيةُ ملةٍ تحض أهلَها على الدعوة كحال ملتنا !!

أينَتُ الديانةُ التي اهتم فيها الأمواتُ ببلاغ الأحياء ؟!

وأين في التاريخ حرصُ الجنودِ على آخرة مقاتليهم ؟!

أين في القلوب قلوبٌ وثقت بجمال وإحكام عقيدتها، فكانت العقيدةُ أساساً للموالاة والمعاداة، وكانت الثقةُ بلسماً حين يفارق المرءُ دنياه ؟!

بقلم د.حسام الدين حامد

قالوا: حدثنا عن محاسن الإسلام كما أمرك الرحيمُ الرحمن!!

قلتُ: حبًا وكرامة !! وواجباً وديانة!!

وليكن من ذلك أولُ المحاسنِ وطليعةَ المناقب، وذاك في دعوة المسلم إلى الإسلام !!

فانظر في ديانات الأمم ومذاهبها أتجدُ فيها دعوةً إلى التعلم والفهم، والتدبرِ والحفظ، والدراسةِ والبحث، والمناظرةِ عن الحق والجدالِ بالتي هي أحسن كمثل ما ترى في الإسلام؟!

ولو كان في الدين موضعُ غمزٍ أو نقيصةٍ لما وجدتَ توجيهاً إلى الجدال والمناظرة، ولو كان في الدين أسرارٌ وأشياءٌ حقّها الكتمانُ لما وجدت حثًّا على التعلم والسؤال، ولو كان في الدين قولٌ محالٌ لا يُعقل لما وجدتَ تنافساً في التفقه والفهم، ولو كان في الدين تعارضٌ مع العلم لما وجدت أمراً بالتدبر والدراسة، ولو كان في الدين ما يَشين لما كانت دعوةُ الناس للإسلام واجباً وديانة.

وهل تكون دعوةٌ إلا لاهتمام بالآخرين وحرصٍ على آخرتهم؟! وهل يكون حرصٌ على آخرتهم إلا ثقةً بجمال وإحكام ما تدعوهم إليه؟! وهل تكون ثقةٌ بما تدعو إليه إلا من ثقةٍ بكمال هذا الدين وعجز العالمين عن نقضه؟!

وهكذا تهديك ثقةٌ إلى أختها ويقينٌ إلى أخيه كسلسلةٍ مترابطة الحلقات!

ووقف أهل الباطل في مقابل ذلك لا يجدون ملاذاً، فقبعوا في قوقعةٍ اتخذوها لأنفسهم عياذاً، يدورون بين ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾[١] و ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾[٢]، ويترددون بين ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾[٣] و ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾[٤]، يخوضون بحار الدم إلى مَقاتِلِهم ولا يسألون عن الحكمة، يعرفون الجدالَ بالدينار والسيف وما جرّبوا الجدالَ بالحسنى، جعلوا دينَهم قوقعة، ويقينَهم مشنقة، وعملَهم تقليداً، وقولَهم ترديداً، وبذلَهم شراءً للذمم، ودعوتَهم إفساداً للقيم.

إن أصل هذه المقارنةِ وأساسَ تلك المقابلة يظهرُ في قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٥]

فلا عجب أن وثق المسلمونَ بكمال دينِهم، ولا بِدعَ أن فرح المسلمون وحدثوا بنعمة ربِّهم،، ولا جَرمَ أن الذين كفروا بلغ منهم اليأسُ مبلغَه، فحُقَّ للمؤمنين ألا يخشوا غيرَ الله، فنفذوا أوامرَه واجتنبوا نواهيه، وتوجهتْ خشيةُ الكفار لكل مؤمن عارف بالله، فاجتنبوا جدالَه وهجروا داعيه!!

إن بداية هذه السلسلة المترابطةِ الحلقاتِ قديمة، إذ كانت يوم بدأ نبيُّنا يُبلّغ ما أُنزل إليه من ربه، وأمَر المسلمين بالسير على دربه، وإن التمثيلَ على هذه السلسلة يكفينا فيه شهرٌ واحدٌ، شهرُ صَفرٍ من السنة الرابعةِ بعد الهجرة، يبعث فيه النبي ﷺ بَعثين للبلاغ والدعوة، فيكون من شأن هذين البعثين عجباً وعبرة!!

فالبعث الأول كان إلى قوم من عضل والقارة، كان من عشرة رجالٍ ذهبوا يُعلمون الدِّينَ ويدرسون القرآن، على رأسهم مرثدُ بنُ أبي مرثد الغنوي وفيهم خبيبُ بن عدي، فأظهر المجرمونَ نيةَ الغدر، ثم أخذوا في التقتيل والأسر، ثم أجمعوا أمرَهم أن يقتلوا الأسيرَ خبيبَ بن عدي، ويُصلبُ الصحابيُّ الكريمُ والقومُ من حوله ينظرون، فيقولُ رضي الله عنه:

إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي
وما أرصدَ الأحزابُ لي عند مصرعي
وقد خيّروني الكفرَ والموتُ دونه
فقد ذرفتْ عيناي من غير مَجزع
وما بي حذارُ الموت، إني لميتٌ
وإنّ إلى ربي إيابي ومرجعي
ولست أبالي حين أُقتل مسلماً
على أي شق كان في الله مصرعي

وتظل عجلةُ الدعوةِ دائرةً، والحرصُ على الآخرين دائمٌ، فيرسل النبي ﷺ سبعين رجلاً، من علماء المسلمين وفضلائِهم، وكان المنذرُ بن عمروٍ على رأسهم، ويمضي حرامُ بنُ ملحانَ رضي الله عنه، يذهب إلى قوم فيعطونه الأمان، فيحدثهم عن رسول الله ﷺ ، ولكن أهلَ الغدر أشاروا لرجلٍ فطعنه برمحٍ فأنفذه، فما يزيدُ الصحابيُّ الكريمُ على قوله: (الله أكبر !! فزتُ ورب الكعبة !!).

ثم يتكالبُ الكفارُ غدراً على السبعين رجلاً فيأسرون ويقتلون، فيهتمُّ السبعون بعد موتِهم - نعم!! بعد موتهم!! - أن يعرف قومُهم بحال آخرتِهم، فأنزل الله تعالى آيةً - نُسخت تلاوةً - يقولون فيها: (أَلَا بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا بِأَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا).

وإن هممتَ أن تعجبَ فإني مناديك ألّا تعجب، فأولئك كانوا من قُراء كتابِ الله تعالى وحَفظتِه، إنهم قومٌ عرفوا خبرَ ذلك الرجل الصالحِ إذ بُشّر بالجنة بعد موته فقال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[٦].

ثم هاهم سلفُنا يتوجهون لردع قومٍ استعدوهم وطعنوا في دينهم وألّبوا العرب عليهم، فيضعون نصبَ أعينهم قولَ نبيِّهم ﷺ :

(انفُذْ على رسلك حتى تنزلَ بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حق الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمرُ النَّعَم).

ولا أستطيع إلا أن أكررَ النداءَ ألا تعجب، فإنهم قومٌ تربوا على مثل ذلكم الدعاءِ القرآني:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٧]

أي لا تنصرِ الذين كفروا علينا فيظنوا أنهم على الحقِّ فيكونَ ذلك سببَ فتنتِهم وضلالِهم..

أرأيت - قبل ذلك - قوماً يحرصون على هداية مقاتليهم؟!

فهل في الدنيا كمثل ديننا؟!

أيُّ مذهب جُعلت الدعوةُ من ثوابتِه والتعلمُ من واجباتِه؟!

وأيُّ دينٍ يبث في أهله الثقةَ كشأن ديننا !! وأيةُ ملةٍ تحض أهلَها على الدعوة كحال ملتنا!!

أينَتُ الديانةُ التي اهتم فيها الأمواتُ ببلاغ الأحياء؟! وأين في التاريخ حرصُ الجنودِ على آخرة مقاتليهم؟!

أين في القلوب قلوبٌ وثقت بجمال وإحكام عقيدتِها، فكانت العقيدةُ أساساً للموالاة والمعاداة، وكانت الثقةُ بلسماً حين يفارق المرءُ دنياه؟!

فالحمد لله أتم علينا النعم، وأكمل لنا الدين، وأمرنا بالتعلم والفهم، والدراسة والبحث، فكان كمالُ ديننا في قلوبنا يقيناً وثقة، وفي سلوكنا اتباعاً وعزة، وفي لساننا بياناً وعظة، وفي نظرنا فكراً وعبرة، وفي تعاملِنا بلاغاً ودعوة، فالحمد لله عددَ خلقه ورضا نفسِه وزنة عرشِه ومدادَ كلماتِه، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله.

الهوامش :

[١] المؤمنون: ٢٤
[٢] فصلت: ٢٦
[٣] آل عمران: ٧٣
[٤] المائدة: ٤١
[٥] المائدة: ٣
[٦] يس: ٢٦ - ٢٧
[٧] الممتحنة: ٥

حقائق قرآنية

لا يقوم العلم التجريبي إلا بها

بقلم عبد الواحد

إنّ المقارنةَ بين ما تَوصَّلَ إليه العلمُ وبين ما جاءَ به الوحيُ، لا بدَّ أن تسبِقَها مقارنةٌ أُخرى بين الحقائقِ المسلَّمِ بها سابقًا من طرفِ العلماءِ والتي بدونها لا يتمكنُ الإنسانُ من التقدمِ في أيِّ علمٍ تجريبي، وبين الإشاراتِ القرآنيةِ لتلك الحقائقِ على أنها أساسٌ للمعرفةِ من جهةٍ وأداةٌ لإقامةِ الحجةِ من جهةٍ أخرى.

فما هي تلك الحقائقُ الأوليةُ التي يعتمدُ عليها كلُّ باحث؟

للرد على هذا السؤالِ لا بدَّ من فهمِ آليةِ البحثِ في العلوم التجريبيةِ نفسِها، فسواءً استقرأَ الباحثُ ما حولَه من أحداثٍ دون تدخلٍ منه أو قام بتجاربٍ أو حتى وضَع نظرياتٍ من عندِه، فإن كلَّ تلك الأنشطةِ ما هي إلا محاولةٌ لتقَصي الأسبابِ الحقيقةِ التي تربطُ بين الظواهرِ الكونية، ودراسةُ الأسبابِ ما هي إلا تسجيلٌ لأحداثٍ مترادفةٍ بحيث يكون الحدثُ السابقُ سبباً للحدث اللاحق، وتكرارُ تلك الترادفاتِ في الظروفِ نفسها يجعلُ الباحثَ يطمئنُّ ولو جزئياً أن ثمَّةَ قاعدةً تربطُ بين الأحداث، ولا يرتقي البحثُ إلى المستوى المقبولِ في عُرفِ الباحثِ إلا إذا تُرجمت تلك القواعدُ إلى معادلاتٍ تُقيَّمُ بميزان الحق.

وحتى لا يَحدثُ خلط...

فإنّ أغلبَ المعادلاتِ في العلومِ التجريبيةِ ليست مبرهَنةً رياضياً, فلا يمكنُ -مثلاً- برهنةُ قانونِ الجاذبيةِ بين مجموعتين في فضاءٍ رياضي، وكلُّ ما قام به نيوتنُ هو تكرارُ التجربةِ مع تغييرِ الكتلةِ والمسافةِ كلَّ مرة، ثم حاول البحثَ عن معادلةٍ تَسري على كل تلك النتائج، والأمرُ نفسه ينطبق على بقية المعادلاتِ في كل العلومِ التجريبيةِ مع بعض الاستثناءاتِ القليلةِ التي لا تكادُ تُذكر.

ماذا يستخلصُ المرءُ مما سبق؟

ما كان لأي علمٍ تجريبيٍّ أن يتقدمَ خُطوةً واحدة، وما كان لأيِّ عالمٍ وضْعُ أيةِ قاعدةٍ يفسِّرُ بها نتائجَ تجاربِه أو استقراءاتِه، لولا تسليمُه المُسبقُ بوجودِ قوانينَ تحكم كلَّ شيءٍ في الكون بالحق.

قال تعالى في سورة آلِ عمران: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

لو عُرضت هذه الآيةُ على أي عالمٍ فهو مضطرٌ أن يقبَلها, إذ لا معنى لدراسةِ العبثِ ما دام العبثُ باطلاً لا ضابطَ له.

قال تعالى في سورة ص: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[2]. وقال سبحانه في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

هذا هو التوافقُ الجوهريّ بين ما يقوله القرآنُ الكريمُ وبين ما يجبُ على الباحثِ الانطلاقُ منه ألا وهو التسليمُ التام بأن السماواتِ والأرضَ خُلقتا بالحقِّ الذي هو أساسُ كلِّ حقيقةٍ علمية.

ما مصدرُ ذلك الإيمان؟

- إنَّ التسليمَ بوجودِ حقٍّ يَحكمُ الكونَ لم ينطلقْ فقط من استقراءِ ما حولَنا من ظواهرَ متكررة. فلا توجدُ قاعدةٌ منطقيةٌ تقول أن تكرارَ الحدثِ ألفَ مرةٍ هو دليلٌ قطعيٌّ على تكرارِه للمرةِ ١٠٠١.

- بل هذا التسليمُ مُضَمَّنٌ في تركيبَتِنا النفسيةِ وفطرتِنا القويمة التي تخبرُنا أن هذا الكونَ ما خُلق إلا بالحق، ولذا فإن الإنسان متى لاحظ تكرارَ ظاهرةٍ ما ضمن ظروفٍ محددة، دفَعَه حينها فضوله أو حاجتُه إلى تمثيلِ تلك الظاهرةِ في صورة معادلاتٍ وذلك لقناعتِه الراسخة أن كل شيء بقدر ومحكومٌ بالحقِّ الذي يضمنُ ذلك التكرارَ متى توفرتْ الظروفُ نفسها، وبدون تلك القناعةِ المسبقةِ ما تكبَّدَ عالمٌ عناءَ البحثِ ابتداءً.

ما هو مفهومُ (السببِ) في العلوم التجريبية؟

إنَّ كلَّ الأسباب المادية التي يكتشفُها العلمُ -بناءً على ما سبق- تحتاجُ هي الأخرى إلى تفسير, ولتبسيطِ الفكرةِ يكفي أن ننظرَ إلى برامجِ المحاكاة - محاكاةِ الطيرانِ كمثال- في هذا البرنامجِ يمكنُ القيامُ بتجاربَ لدراسةِ الكثير من القوانينِ الفيزيائيةِ المدمجةِ فيه، ومن السذاجةِ أن نعتبرَ ذلك دليلاً على قيام البرنامجِ بذاتِه أو أن القوانين الفيزيائيةَ في البرنامج لا مُسببَ لها، بل وراءَ كلِّ الأسبابِ التي يمكن اكتشافُها على مستوى البرنامج، هناك أسبابٌ أخرى في مستويات موازية.

الأمر نفسه ينطبقُ على الكون, والقياسُ هنا سليمٌ لأن الكونَ خاضعٌ لقوانينَ محددةٍ مُسبقاً وهذا بالضبطِ هو تعريفُ Algorithm ؛ ولذلك فإن فهمَ العالِمِ العاقلِ للسببِ الماديِّ يختلفُ عن فهمِ الملحدِ الذي ينفي مثلاً وجودَ الروحِ كمُسببٍ لمجردِ إدراكِه لبعضِ الأسبابِ على المستوى المادي، هذا لظنِّه - عن جهلٍ - استحالةَ وجودِ أسبابٍ مترادفةٍ وأخرى في مستوياتٍ موازية، وهذا مجردُ ظنٍّ ليس عليه دليل، ولو طبَّقه على برنامجٍ المحاكاةِ أعلاهُ لأنكرَ وجودَ فريقِ المبرمجينَ مثلاً كسببٍ من الأسبابِ بل لَوجبَ عليه إنكارُ كلِّ شيءٍ دون البرنامجِ يؤثر فيه، نفسُ التصورِ الساذجِ نجدُه عند الجاهلِ الملحدِ قلباً القسيسِ قالباً الذي ينفي وجودَ ملائكةٍ كأسبابٍ للبرقِ لمجردِ وجودِ أسبابٍ فيزيائية, بهذا المنطقِ عليه أن يُنكرَ وجودَ الروحِ لمجرد وجودِ أسبابٍ بيولوجيةٍ تَحكمُ الجسد.

إذاً مفهومُ (السبب) في العلوم التجريبيةِ لم يكن أبداً يفيدُ أنه أولُ الأسبابِ أو أنه سببٌ لا مسببُ له, ولم يقلْ بذلك عالم.

مثلاً لماذا قوةُ الجاذبيةِ $= \frac{Gm_1m_2}{r^2}$ ؟

كلُّ ما هنالك أن الإنسانَ لاحظَ هذه العلاقةِ الثابتةِ بالاستقراءِ فاعتمدها، وما كان ليعتمدَها لولا إيمانُه المُسبقُ الفطريُّ أن كلَّ شيءٍ في الكونِ خُلق بالحقِّ ويسيرُ وفقَه.

الـدليـل ..

فُطرَ الإنسانُ على التَّعلم منذ ولادته, ولأنَّه لا معنى لتعلمِ درسٍ ليسَت له قاعدة؛ فإننا نكونُ قد أثبتنا بأوضح برهانٍ وأقوى دليلٍ أنّ من فُطر على تعلّم القواعدِ ابتداءً فقد فُطرَ بالضرورةِ على التّسليم بخضوعِ ما حوله لتلكَ القواعد؛ فخوفُ الطفلِ منْ أنْ تحرقَ النارُ أصبعَه إذا اقتربَ منها مرةً أخرى خوفٌ من قاعدةٍ لا يريدُ أن تُطبقَ ثانيةً على أصبعِه الصغير, مما يدل على أنّ خوفَه قد سبقَه تسليمٌ فطريٌّ بضرورةِ وجودِ قاعدة، وهذا الإيمانُ سبقَ - أيضاً - كلَّ بحثٍ علميٍّ سيقومُ به في كِبَرِه, ومع تراكمِ تجاربِه تترسخُ لديه المُسلَّمةُ التي ارتكزَ عليها في بحثِه.

النـتيجـة :

قَبولُ الإنسانِ عموماً -والملحدِ خصوصاً- بأصول البحثِ العلميِّ هو إقرارٌ ضمنيٌّ بفطرتِه التي سلَّمتْ بوجود حقٍّ يحكمُ هذا الكون، فكانت دعوةُ اللهِ للإنسان إلى التفكرِ في نفسِه أولاً، ثم ربطَ ذلك بالتفكر في كيفيةِ خلقِ اللهِ للسماواتِ والأرضِ وما بينهما، وهذه دعوةٌ من الخالقِ الذي أهّلَ الإنسانَ للتفكُرِ وجعله قادراً على طلب العلمِ بأنْ بمنحِه مرتكزاً ينطلقُ منه في بحثه.

قال تعالى في سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[٤].

والتفكرُ في النفس يشملُ أيضاً الأسئلةَ التي تؤرقُ العالِم، مِنْ قبيلِ:

١) ما الذي جعل لي القدرةَ على رصدِ تصرفاتِ هذا الكون؟
٢) وما الغايةُ من تأهيلي لذلك؟
٣) وما الذي جعلني أُسلّم يقيناً بوجودِ نظامٍ في الكون قبل أن أجدَ تفسيراً لظواهرِه وقبل أن أتكبدَ عناءَ أول بحثٍ؟

هذه هي القضيةُ الأولى التي يجبُ أن تكون موضعَ مقارنةٍ لا لإثبات تَوافُقِ الإسلام مع ما توصَّلَ إليه العلمُ التجريبيُّ من نتائجَ فحسب، بل لإثبات تَوافقِ الأصل الذي أقرَّه القرآنُ الكريمُ للبحث العلميِّ والذي بدونه لا يستقيمُ أيُّ علمٍ تجريبي, وهذا الأصلُ هو التسليمُ الفطري -قبل الشروعِ في أيِّ بحث- بأنَّ الكونَ كلَّه خُلقَ بالحقِّ وما زال محكوماً به.

قال تعالى في سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٥]. وقال سبحانه في سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٦]. وقال جل وعلا في سورة الأحقاف : ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾[٧].

الهوامش :

[١] آل عمران : ١٩١
[٢] ص : ٢٧
[٣] الدخان : ٣٨ ـ ٣٩
[٤] الروم : ٨
[٥] يونس : ٥
[٦] الحجر : ٨٥
[٧] الأحقاف : ٣

ارتكاس القــدوة

مما لا شك فيه أن القدوةَ لها أثرٌ كبيرفي سلوك الناس وتوجهاتِهم وخصوصاً إذا كانت هذه القدوة تُنعَتُ بالعبقرية، والإبداع، وتُشادُ لها النصُبُ التذكارية، وتُحاطُ بهالةٍ من القداسة، والإعجابِ والنجومية. إذا صح هذا فإن الانهيارَ الأخلاقيِّ والقيَميِّ الذي آلت إليه الحضارةُ الغربيةُ لم ينحدر مباشرةً إلى القاعدةِ الشعبيةِ العريضةِ والجماهيرِ الواسعة، إلا بعد أن مر بقادةِ المجتمعِ ونجـومِه، ورُؤي أثرُه في سلوكهم، وأنماطِ حياتهم.

د أحمد إدريس الطعان

إن القادةَ والنجومَ في المجتمع لهم من النفوذ النفسي ما يدفعُ الناسَ إلى تقليدِهم، ومحاكاتِهم واقتفاءِ آثارِهم، وهذا ما يعلمُه جيداً مُروجو السلعِ عن طريق الدعايةِ والإعلانِ حيث يتنافسون في إعلاناتهم على استخدام نجومِ المجتمع ورموزِه. والنجوميةُ هنا يُسهم الإعلامُ في إبرازِها بحقٍّ وبغير حق، وتُدفعُ (للنجم!) أحيانا أرقامٌ خياليةٌ[١] لكي يظهر على الشاشة يحتسي مشروباً، أو يرتدي قميصاً وذلك لِما يدركون من أثر النفوذِ النخبَوي في استقطاب تقليدِ الجماهير[٢].

وإذا صح هذا -مرةً أخرى- فإنه لَنتيجةٌ طبيعيةٌ أن تصل الحضارةُ الغربيةُ إلى هذا المستوى من الانحطاط الأخلاقي والتفككِ القِيَمي، لأنه يندرُ أن نجد في فلاسفة أوربا الحديثةِ من كان يوصفُ بالاستقامةِ أو حُسنِ السيرة، أو اعتدالِ السلوك.

ونريد هنا أن نشير بعجالةٍ إلى ما يقولونه هم في عباقرتهمُ العظماء، وقادتهمُ النُجباء، ولمن شاء المزيد فعليه أن يراجعَ التراجمَ الموسعةَ لهؤلاء.

يتحدث **(تشيللني)** في القرن السادس عشرَ عن طفلةٍ رُزقها ثم يقول: "لم يسبق لي أن رزقتُ بأطفال غيرَها على ما أذكر! وبقدر ما تسعفني الذاكرة ! وخصَّصتُ بعد ذلك نفقةً للأم كافيةً بحيث أرضت إحدى خالاتها التي عهـدت إليـها بهـا. ولم أرهـا بعد ذلك أبداً!"[٣]. واللافتُ للنظر هنا أنه لا يتذكر ما إذا كان له أولادٌ آخرون أم لا؟ وأنه خصص لابنته المولودةِ بضعةَ دراهمَ ثم لم يرها أبداً بعد ذلك، وسنتذكرُ هذا بعد قليل، ونشيرُ إليه عندما نتحدث عن جان جاك روسو.

أما مؤسسُ المنهجِ التجريبي، وأعظمُ وأوسعُ وأبلغُ الفلاسفةِ[٤] والابنُ البارُّ لعصر النهضةِ والمفكرُ الغزيرُ العلم[٥] **(فرنسيس بيكون)** (١٥١٦ – ١٦٢٦م) أعظمُ عقلٍ في العصور الحديثة[٦]، فلم يكن رجلاً فاضلاً كريمَ النفسِ وإنما كان خائناً غادراً، مختلساً، انتهازياً منعدمَ الضمير[٧] فلقد خان صديقَه العزيز **(أسكس)** الذي أحسن إليه عندما كان بحاجةٍ إلى الإحسان، ولما عُيّن عضواً في المحكمةِ تحت رعايةِ الملكة إليزابيث، وكان **(أسكس)** متهماً من قِبل الملكةِ بتهمةِ الخيانةِ الكبرى، وقف **(بيكون)** في المحكمةِ ضدَّ صديقِه، وأسهم في إصدار الحكم عليه بالإعدام من أجل أن يحظى بمنصبٍ لدى الملكة، وحظي بذلك فعلاً فقد استلم منصبَ رئيسِ الوزراء، ولكنه لم يكن يكُفُّ عن الاشتغال بالتآمر والدسيسة، فاتُهم بالاختلاس، وتقبُّل الرشاوي من المواطنين، ودخل السجن، وحُكم عليه بغرامةٍ قدرُها أربعون ألفَ جنيهٍ إسترليني والغريبُ أن يقول بعد ذلك: "لقد كنت أعدل قاض في انكلترة في الخمسين سنة الأخيرة"[٨].

وكان **(ليوناردو دافنشي)** (١٤٥٢-١٥١٩م) و**(إيرازموس)** (١٤٦٦-١٥٣٦م) أولادُ زنا، وليس العيب فيهما وإنما في من أنجبهما بهذا السفاح وكان والدُ إيرازموس قسيساً على قدرٍ من العلم[٩]. وكان **(ديكارت)** (١٥٩٦–١٦٥٠م) الذي يُدعى "أبا الفلسفة الحديثة" لم يتزوج، إلا أنه أنجب ابنةً غيرَ شرعيةٍ توفيت في الخامسة من عمرها، وتحسر عليها طيلة حياته[١٠].

أما **(جان جاك روسو)** (١٧١٢–١٧٧٨م) الفيلسوفُ العظيم[١١] فقد كان سافلاً، لصاً مخادعاً غادراً، خائناً، كاذباً، دون أن يجد أيَّ غضاضةٍ في الاعتراف بذلك في كتابه "اعترافات روسو" وكان مجرداً من جميع الفضائل[١٢]، لحق بالكاثوليكيةِ طمعاً في بعض المغانم، فآوته سيدةٌ اسمُها مدام ميرسكي فسرق منها شيئاً يخصها، فلما اكتُشف أمره وخشي أن يُفتضح اتهم خادمتَها زوراً بالسرقة.

ولم يكن مسلكُه الجنسيُّ أفضلَ حالاً فقد كان منفلتاً إلى أقصى الحدود، فقد تعرَّف في إيطاليا على سيدةٍ تُدعى مدام وارتيز كانت بروتستانتية وتحولت مثلَه إلى الكاثوليكية، وكان في البداية يدعوها «أمي» ثم تحولت إلى خليلة، وعاش معها في بيتها يعاشرُها

معاشرة الأزواج دون أن يُكدرَه أنها كانت تضاجع خادمَها الخاص إلى جانبه، ولما مات الخادمُ حزن عليه، ولم يُعَزِّه سوى علمُه بأنه سيستولي على ثيابه من بعده. وفي سنة ١٧٤٥م تعرف على خادمة تدعى تيريزلي فاسبر عاش معها بقيةَ حياته دون زواج، وأنجب منها خمسةَ أطفالٍ أدخلهم جميعاً دارَ اللُّقطاء.

قلتُ قد يكون فعل ذلك للأنه لا يدري أولادَ من هم؟ وعلى كل حالٍ فقد كان **(تشلليني)** أرحمَ منه إذ خصص لابنته التي لم يرها قطُّ مبلغاً من المال.

هذا الذي كان يوصف بأنه ترك أثراً عظيماً في الفكر الأوربيِّ بوصفه أديبًا وفيلسوفًا ومصلحًا اجتماعيًا سيطرتْ عليه الوساوس، وجنونُ الاضطهادِ في أُخرياتِ حياته فمات منتحراً كما يُظن[١٣].

أما الشاعرُ الإنكليزي الشهير **(شلي)** (١٧٩٢-١٨٢٢م) فقد كان مثالاً للإباحيةِ والانحراف إذ خطف ابنةَ أستاذه **(وليم جودوين)** (١٧٥٦-١٨٣٦م) واسمها ماري، وكانت في السابعةَعشرةَ من عمرها وعاشا معاً عيشةَ الأزواج، وأنجبا ابنًا غيرَ شرعيٍّ، وكان شلي متزوجاً قبل ذلك فلما علمت زوجتُه بذلك أقدمت على الانتحار[١٤]. أما والدُ ماري **(وليم جودوين)** فلم يزعجه ذلك لأنه وجد مبرراً لاقتراض المالِ من تلميذه حتى آخرِ حياته دون أن يردَّ له شيئاً[١٥]. وأما ماري ابنتُه فإنها لم تفعل شيئاً أكثرَ من تطبيق فلسفةِ والدِها التي تدعو إلى الإباحيةِ الجنسية، وتعتبرُ الزواج نظاماً عبودياً[١٦].

وكان **(ريتشارد كارليل)** (١٧٩٠-١٨٤٣م) صاحب كتاب "الأبطال" يعيش مع آليزا شاربلز دون زواجٍ في بيتٍ واحد، وأنجبا أربعةَ أطفالٍ غيرَ شرعيين[١٧].

وأما **(أوجست كونت)** (١٧٩٨- ١٨٥٨م) فقد وقع في حب كارولين ماسان وهي فتاةٌ تشتغل بالبغاء، فتزوجها وأخلصت له بطريقتها الشاذة، ولما وقعا في ضائقةٍ مالية اقترحت عليه أن تُسهم في معيشتهما بما تحصلُ عليه عن طريق مهنتها القديمة، ولكنه رفض ثم انفصلا. هذا هو أستاذ الفلسفة الوضعية[١٨].

وكان **(شوبنهاور)** (١٧٨٨-١٨٦٠م) مصاباً بنوع من الهوس والمرض النفسيِّ، وقد عُرفت في عائلته حالاتٌ من الجنون، وكان شهوانياً داعراً، ولم يرتبط بأي امرأةٍ عن طريق زواجٍ شريف إلا في علاقات غرامية مبتذلة، ومع ذلك كان يندد بالمرأة، ويمتدحُ العزوبية[١٩].

وكان شديدَ البخل، ويستخدمُ مراسلينَ يتصيدون له الشواهدَ على شهرته، ويصعبُ أن نجدَ في حياته شواهدَ على أي فضيلةٍ باستثناء الرفقِ بالحيوانات[٢٠] كما كان على خلافٍ شديدٍ مع أمه بسبب علاقاتها الشاذةِ مع الرجال بعد وفاة أبيه، وهجرَها فلم يرها في العشرينَ سنةً الأخيرةَ من حياتها[٢١].

أما **(نيتشة)** (١٨٤٤-١٩٠٠م) صاحبُ إعلان "موتِ الإله" فقد عاقبه الله [عز وجل] في الدنيا بأن قضى السنواتِ العشرِ الأخيرةِ من حياته مجنوناً، وكان أصابه قبل ذلك أيضاً مرضُ الزُّهريِّ نتيجةً لممارساته الجنسيةِ العابثة في لياليه الحمراء[٢٢].

وأصابه في جنونه هذيان العظمة إذ كان يدعو إلى الإنسان الأعلى، ويتبنى أخلاقَ القوة، ويحلُم بالقضاء على كل الضعفاءِ والمعوقينَ وإقصائِهم من الوجود لأنه لايريد أن يرى إلا الأقوياء[٢٣]، ومثلُه الأعلى دائماً إنسانٌ متجردٌ تماماً من التعاطف، متحجرُ القلب، قاسٍ، لا يعرف الشفقةَ، خبيثٌ، لا يعبأ إلا بقوته[٢٤]، وكان قد أحب زوجة صديقه فاجنر، وحاربه في كتاباته من أجلها[٢٥].

والآن: هؤلاءِ هم نجومُ الغرب، وقادتُه العظماء، ومُثله العُليا، يقرأُ الغربيُّ سِيَرَهم المدنسةَ بوحل الرذيلة، ويبحثُ في تاريخهم فلا يجده إلا ملطخاً بالعار، ثم يتابعُ إعلامُه الصاخبُ فلا يجد فيه بشأن هؤلاء إلا الإعلاءَ والتمجيدَ والفخار، فتنقلبُ في مناظيره موازينُ القيمِ فتصبح:

الخيانة والغدر طريق المجد ..

والانحلال والتهتك طريق النجومية ..

والإلحاد والزندقة طريق العظمة ...

وهكذا يعيش الإنسانُ الغربي اليومَ يفصلُ بين الأخلاقِ والحضارة، وبين القيمِ والرقي، وفي النهايةِ يفصلُ بين الإنسانية والإنسان، وعندها يصبحُ الإنسانُ ذئباً، أو ثعلباً، أو ثعباناً ويصعبُ أن تجدَ "الإنسانَ الإنسان"[٢٦]. أو يصبحُ الإنسانُ شيئاً، أو سلعةً، أو وثناً، أو نمطاً، أو آلة، ويندرُ أن تجدَ "الإنسانَ الإنسان"[٢٧]. كلُّ ذلك يأتي من وراء النجوميةِ الكاذبة، والرموزيةِ الخادعة، والنخبَويةِ الفارغة، وفي النهاية **"إذا كان ربُّ البيت بالطبلِ قارعاً فشيمةُ أهلِ البيتِ كلِّهمُ الرقصُ"**.

هوامش المقال

١. في مونديال كأس العالم ٢٠٠٢م كنا نسمع كيف يُدفع لأحد اللاعبين ٨ مليون جنيه إسترليني من أجل مباراة يلعبها مع أحد الفرق الرياضية، ولاعب آخر مرتبه الشهري ٢٠٠ ألف دولار وهكذا ... والسؤال هو: ما هي رسالة الرياضي للبشرية؟ وما هي الخدمة التي يقدمها للإنسانية وهو يتقاضى مرتباً يعادل ما يتقاضاه موظفو دولة بأكملها من دول العالم الثالث الفقيرة؟ اللهم لا حسد، ولكن أليس هذا مبرراً للإرهاب؟!! أما الممثل عادل إمام فيُدفع له مليون جنيه مصري لكي يظهر في إعلان على الشاشة لا يتجاوز دقيقة فيرفض. ترى لماذا رفض؟ هل لأنه صاحب رسالة ومبدأ أم لأنه لم يعد بحاجة فقد امتلأت جيوبه. نحن المساكين لا نزال نتكلم بلغة الجيوب ولا نعرف شيئاً عن لغة البنوك والرصيد والحسابات!؟.

٢. انظر: غوستاف لوبون «الآراء والمعتقدات» ص ١١٧ .

٣. انظر: كرين برينتون «تشكيل العقل الحديث» ص ٤٠ .

٤. انظر: ديورانت «قصة الفلسفة» ص ١٨٠ .

٥. انظر: برينتون «تشكيل العقل الحديث» ص ٨٠ .

٦. انظر: ول ديورانت «قصة الفلسفة» ص ١٣٥ .

٧. انظر: برينتون «تشكيل العقل الحديث» ص ٧٩ .

٨. انظر: ديورانت «قصة الفلسفة» ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٨٣ ووليم كلي رايت «تاريخ الفلسفة الحديثة» ص ٦٠ ، ٦١ وبرتراند رسل «تاريخ الفلسفة الغربية» ص ٧٩ ، ٨٠ ويوسف كرم «تاريخ الفلسفة الحديثة» ص ٤٤ ورمسيس عوض «الإلحاد في الغرب» ص ٥٧ .

٩. انظر: برتراند رسل «تاريخ الفلسفة الغربية» ص ٣٧ ورمسيس عوض «الإلحاد في الغرب» ص ٥٠ .

١٠. انظر: رمسيس عوض «الإلحاد في الغرب» ص ٦٠ وبرتراند رسل «تاريخ الفلسفة الغربية» ص ١٠٨ .

١١. انظر: كافينرايلي «الغرب والعالم» / الجزء الثاني ص ١٨٠ ترجمة : د .عبد الوهاب المسيري و د. هدى عبد السميع حجازي . عالم المعرفة- الكويت رقم ٩٧

١٢. انظر: برتراند رسل «تاريخ الفلسفة الغربية» ص ٢٨٨ .

١٣. انظر: برتراند رسل «تاريخ الفلسفة الغربية» ص ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ورمسيس عوض «الإلحاد في الغرب» ص ١٨٠ .

١٤. انظر: رمسيس عوض «الإلحاد في الغرب» ص ١٩٨ .

١٥. انظر: رمسيس عوض «الإلحاد في الغرب» ص ١٩٣ .

١٦. انظر: السابق ص ١٩٣، ١٩٨ .

١٧. انظر: السابق ص ٢٣٨ .

١٨. انظر: وليم كلي رايت «تاريخ الفلسفة الحديثة» ص ٣٧٩ .

١٩. انظر: وليم كلي رايت «تاريخ الفلسفة الحديثة» ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ وبرتراند رسل «تاريخ الفلسفة الغربية» ص ٣٩١.

٢٠. انظر: برتراند رسل «تاريخ الفلسفة الغربية» ص ٣٩١ ، ٣٨٦ .

٢١. انظر: السابق ص ٣٨٥ .

٢٢. انظر: وليم كلي رايت «تاريخ الفلسفة الحديثة « ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

٢٣. انظر: فؤاد زكريا «نيتشة» ص ٢٠ ، ٩٩ ١٠١ وانظر: برتراند رسل «تاريخ الفلسفة الغربية» ص ٣٩٨ .

٢٤. انظر: برتراند رسل «تاريخ الفلسفة الغربية» ص ٤٠٣ .

٢٥. انظر: فؤاد زكريا «نيتشة» ص ٢٤ ، ٢٥ .

٢٦. انظر: د.عبد الوهاب المسيري «العلمانية تحت المجهر» ص ٤٢ والعبارة الأخيرة من قصيدة لصلاح عبد الصبور بعنوان «بشر الحافي».

٢٧. انظر: السابق ص ٣٣ ، ٩٣ حيث تشيع في الأدب الحداثي المعاصر الكتابات عن غربة الإنسان وضياعه وظهور مصطلحات تعبر عن ذلك مثل: التشيؤ أي يصبح الإنسان شيئاً والتسلع يصبح الإنسان سلعة والتنميط تصبح حياة الإنسان روتين ممل قاتل أشبه بالأنماط المتشابهة التي تخرجها الآلة، والتوثن: يعني أن الإنسان نزعت عنه قداسته وإنسانيته.

الوهـــم

بقلم د.أبو مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلام على أشرف المرسلين سيدِنا محمدٍ ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أما بعد .

فإنه لمَا كان للوهْم بالمعنى المنطقيِّ أثرٌ كبيرٌ على اعتقاد الإنسانِ وبسببِه يقعُ المرءُ في كثير من البدعِ حتى أنَّه ينكرُ صفاتِ الله تعالى بل قد يصلُ ببعض المرضى إلى الإلحاد؛ فقد تَعينَ التنبيهُ إلى حقيقة الوهْم وأثرِه، وكيفيةِ التخلصِ منه، والردِّ على ما يسمى بشبهةِ الاشتباه المحتمَل .

والوهْمياتُ التي نتحدثُ عنها هي: **(قضايا يقضي بها الوهمُ الإنسانيُّ قضاءً جازماً بريئاً عن مقارنة رَيبٍ وشك)**[١].

فيقعُ الغلطُ فيها بسبب الوهْمِ لأنه تابعٌ للحسِّ فإن الأشياءَ التي لا يشعرُ بها الإنسانُ بحِسه مطلقاً ولا قريباً منها فإن وهْمَه يَحكمُ بعدم وجودِها، وهذا عملُ قوةٍ تسمى وهْميةً شأنُها ملازمةُ المحسوساتِ ومتابعتُها والتصرفُ فيها، فكل ما لا يكونُ على وفقِ المحسوساتِ التي ألِفَتها فليسَ في طباعِها إلا النبُوُّ عنها وإنكارُها،

ومن هذا القبيلِ نُفرةُ الطبعِ عن قول القائلِ: ليس وراءَ العالَمِ خلاءٌ ولا ملاء[٢].

ولهذا نجدُ أن الوهْمَ كثيراً ما يعارضُ العقلَ في مسائلِ الإلهياتِ لكونِها ليست على نمطِ المحسوساتِ فنجدُ الوهْمَ يعجزُ عن تصورِ ما لا يتناهى أو ما وجودُه جسميٍّ **(ولهذا يكون الوهْمُ مساعداً للعقل في الأصولِ التي تُنتجُ وجودَ تلك المبادئ فإذا تعديا معاً إلى النتيجةِ نكص الوهْمُ وامتنع عن قبولِ ما سلَّم بموجبه)**[٣].

وهذه النوعيةُ من القضايا أقوى ما تكونُ تأثيراً في النفس فهي أقوى من المشهوراتِ لكونها نابعةً من النفس وليست من خارجِها فإنها حتى ولو أثبت العقلُ بطلانَها بالأدلةِ القاطعةِ فإن الوهْمَ يظل يكابرُ وتتمنعُ النفسُ عن قبولِ النتيجةِ بعد قبولِ مقدماتِها ..

فالخلاصةُ أن سببَ اختلاطِ الوهْمياتِ بالضرورياتِ هو استيلاؤُها على النفس استيلاءً يَصعبُ على النفس مدافعتُه.

لكن كيف يُتجنب حصولُ ذلك الخلط؟

والجواب:

أن فصل الوهْمياتِ عن الضرورياتِ أصعبُ ما يكون، وكذلك الحال في فصلها عن الظنيات. ومن العناية بفصل الوهْم عن الصواب ما يسمى في علم مصطلح الحديث بمعرفة علل الحديث[٤]، حيث يميز فيه أوهام الرواة في الإسناد والمتن، لكن ذلك يحتاجُ لبحثٍ آخر فالمقصودُ هنا الحديثُ عن فصل الوهْميات عن الضروريات في الأمور العقلية لا في أخبار الرواة.

ويرى ابنُ سينا أنه لا يمكن تجنبُها استناداً لدليل الشرعِ وأنَّها لِقوتها **(تَثْلَمُ في شهرَتِها الدياناتِ الحقيقية والعلوم الحكمية)**[٥]، ويؤكد الغزاليُّ على أنه لا يظهرُ كذبُها إلا بدليل العقل، ولكن ذلك من الصعوبة بمكان، فهي **(ورطةٌ تاه فيها جماعةٌ فتسفسطوا وأنكرُوا كونَ النظرِ مفيدا للعلم اليقينى وكشفُ الغطاءِ عن هذه الورطة يستدعي تطويلا)**[٦].

لكن هناك طريقان يمكن تلخيصُهما :

الأول: أن يناقَضَ الوهْمُ بالوهْم؛ فالوهْمُ -مثلاً- لا يستطيعُ أن يتصورَ شيئاً إلا وله سُمكٌ وهذا يوقِعه في التناقض مع نفسِه في مسائلِ الصفاتِ لأنه لا يستطيعُ أن يتصورَ قيامَ الصفاتِ الكثيرةِ بنفس الجسمِ ومع ذلك فهو يُثبتُها.

الثاني: أن يعلم حقيقةَ الوهْمِ وأنه لا يُطيعُ في غير المحسوساتِ على وجه الخصوصِ لكنه يطيعُ في ترتيب المقدماتِ على النتائج، فحيلةُ العقل مع الوهْمِ هي في أن يثق بكذبِه مهما نظرَ في غيرِ محسوس، وأن يأخذَ مقدماتٍ يقينيَّةً ليساعدَه الوهْمُ عليها، ويُنظمَها نظمَ البرهان، ويجعلَ من ذلك ميزاناً وحَكماً بينه وبين الوهْمِ، فإذا رأى الوهْمَ قد زاغ عن قبول نتيجةِ دليلٍ قد ساعد على مقدماتِه وساعد على صحةِ نظمِها وعلى كونِها نتيجةً علم أن ذلك من قصورٍ في طباعِه عن إدراك مثلِ هذا الشيءِ الخارجِ عن المحسوسات[٧].

هذا.. ويضيفُ الرازيُّ بُعداً آخرَ لأسباب اختلاطِ الضروريات بغيرِها، وهو خرقُ العادةِ والاشتباهُ والتشبح ، يقول الرازيُّ في "المحصول":

(والاشتباهُ حاصلٌ في المحسوسات بدليلِ العقلِ والنقل)[٨].

ويَستدلُّ من العقل بعدة أمورٍ منها:

الأول: (أن الله تعالى قادرٌ على أن يخلقَ شخصاً آخرَ مثلَ زيدٍ في شكلِه وفي تخطيطِه .. غايتُه أنه نادر، ولكن النُّدرةَ لا تمنعُ الاحتمال..

الثاني: أن غلطَ الناظرِ أمرٌ مشهور، فإن الإنسانَ قد يرى المتحركَ ساكناً وبالعكس، وذلك يقتضي حصولَ اللبسِ في الحِسيات..

الثالث: أن الإنسانَ ربما يتشبحُ له عند الخوفِ الشديدِ أوالغضبِ الشديد أو الفكرِ الشديد صورةٌ لا وجودَ لها في الخارج .. وكلُّ ذلك مما يؤكد احتمالَ الاشتباه)[٩].

وأما من النقل فاستدلَّ بأن (المسيحَ عليه السلام شُبه بغيره .. وأن جبريلَ عليه السلام نزل في صورةِ دحيةَ الكلبي رضي الله عنه..)[١٠].

والواقعُ أن ذلك ليس هو مذهبُ الرازي ولا مذهبُ أحدٍ من المناطقةِ أو الأصوليين بل مذهبُ المسفسطة، وقد ذكره الرازيُّ هنا في معرضِ الردِّ على أبي الحسينِ البصري عندما أراد أن يُثبت إفادةَ التواترِ للعلم اليقيني، وكان الرازيُّ يريد أن يثبت أن الضروريات لا تحتاجُ لإثباتٍ بل إن الإقرارَ بها متحققٌ وهي أوضحُ من أن يُستدلَّ عليها وأن (**التشكيكَ في الضروريات لا يَستأهل ردا**)[١١] وأنه كان ينبغي على أبي الحسينِ ألا يفعل ما فعل فلا حاجةَ للاستدلالِ على إفادة التواترِ للعلم اليقيني.. لكن الذي حدث أن الرازيَّ لم يكتف بذلك بل لجأ إلى التشكيكِ في استدلالِ أبي الحسينِ من جميع الوجوهِ فأتى ضمناً على التشكيكِ في المحسوسات والعقلياتِ وكل الأدلةِ اليقينية، ذكر ذلك دون مبررٍ ثم سكت عنه!!

وفعل نفسَ الشيء في كتاب "الملخصِ في المنطق والحكمةِ" عندما أراد أن ينتقدَ مذهبَ المناطقةِ وأنه لا يؤدي إلى اليقين فقال: (**المجرباتُ والمشاهَداتُ آيلةٌ إلى الحسِّ فضلاً عن أن المجرباتِ في حاصلِها ترجعُ إلى الطردِ والعكس، وهو أنا إذا رأينا حصولَ الإسهالِ عند تناولِ السقمونيا مرةً بعد أخرى فإن ذلك لا يدلُّ على الجزم، وقد اتفقتْ كلمتُهم على أن الطردَ والعكسَ لا يفيدُ اليقينَ فكيف جعلوه الآن مقدمةً يقينية**)[١٢] وردد تلكَ العبارة الشهيرة الخاصة بزيدٍ الذي ليس هو زيداً بل زيدٌ آخرُ ولكن مع مزيدٍ من التهكم إذ يُضيفُ إليها عبارةَ (**.. وكذلك القولُ في جميع العاداتِ فإني إذا خرجتُ من الدار أقطعُ بأن ما فيها من الأواني لم تنقلبْ ذهباً، بل لم تنقلبْ أناساً فاضلينَ محققينَ في العلوم الدقيقة ، مع أن تجويزَ ذلك قائمٌ في العقول؛ فإنها أجسامٌ وكلُّ جسمٍ يقبلُ من الصفات ما يقبلُه سائرُ الأجسام**)[١٣].

إن ذلك غيرُ مقبولٍ من الإمام رحمه الله تعالى خاصةً إذا وصل الأمرُ لعبارةٍ من قبيل: (**وحينئذٍ لا يمكننا القطعُ بأن الذي أوجبَ الصلواتِ الخمسَ هو المصطفى ﷺ لجوازِ أن يكون شخصاً آخرَ شُبِّه به**)[١٤] هذا ليس من باب شحذِ الخاطرِ ولا تنشيطِ العقلِ ولا يوجدُ له مبررٌ على الإطلاق خاصةً إذا تُرك هكذا وبدون توضيحٍ أو رد.

على كل حالٍ فما ذكره الإمامُ الرازيُّ هنا مبنيٌّ على مبدإٍ غيرِ صحيحٍ وهو أنه إذا كان هناك احتمالٌ لخرقِ العادةِ وخرقِ القوانين فإنَّ ذلكَ

يعني ثبوتَ خرقِ القوانينِ وأنه لا قانون، وهذا ليس توقفاً ولا تشككاً بل إثباتاً للاحتمال النادرِ وأخذاً بمُقتضاهُ وإلغاءً للآخرِ بدون مُرجح، بل الصوابُ أن نقولَ إن ههنا احتمالانِ متعارضانِ: احتمالُ أن يخلقَ اللهُ شخصًا مثلَ زيد، واحتمالُ أن لا يخلق الله شخصاً مثلَ زيدٍ، وهما متعارضان ومتساويانِ؛ فيُسقِطُ كلٌ منهما الآخرَ ويبقى الأصلُ الذي أقرَّته عقولُ الناسِ وتبقى القوانينُ على حالها.

ومعلومٌ أن الله تعالى قادرٌ على كل شيءٍ وأن خوارقَ العاداتِ قد تقع، بل إن من المتكلمينَ من قال بجواز تعلُّقِ القدرةِ الإلهية بالمستحيلاتِ، لكن ذلك لا يعني بحالٍ هدمَ العقلِ فالقليلُ النادرُ لا حُكمَ له، ولو توقفنا عند النادرِ وخوارقِ العاداتِ وقلنا بأنه لا يقينَ لتوقَّف العلمُ لأن اليقينَ إذا انعدمَ انعدمَ تطلُّعُ الإنسانِ للبحثِ وتصحيحِ معارفه وهذا مما تدعو الحاجةُ لتركِه، أما بالنسبةِ للأصوليينَ فيدعوهم لذلك الشرعُ فمِن القواعدِ الفقهيةِ المقررةِ أن النادرَ لا حُكم له[١٥] فالأصلُ في الشرع إلحاقُ النادرِ بالعدم[١٦].

وليس هذا قاصراً على الأصوليينَ والفقهاءِ فحَسْب بل هو مما أقرَّ به جميعُ الطوائفِ كالفلاسفةِ والمتكلمينَ وغيرِهم كما أكد على ذلك أبو حيانَ التوحيدي وابنُ مسكويه[١٧].

هوامش المقال

[١] الغزالي: "معيار العلم" ص ١٩٨

[٢] انظر الغزالي: "المستصفى" ٣٧/١

[٣] ابن سينا: "الإشارات" ٣٥٤/١

[٤] هو علمٌ يبحث عن الأسباب الخفيةِ الغامضةِ من حيثُ أنها تقدحُ في صحة الحديثِ ويسمي الحديثُ معلولاً (أو معلاً) إذا (اطلع فيه على علةٍ تقدحُ في صحته مع أن ظاهرَه السلامةُ منها) ابن الصلاح: "مقدمةُ ابن الصلاح" مكتبة الفاربي، ١٩٨٤ ص ٥٢، وممن صنف في هذا العلم ابنُ المديني (٢٣٤هـ) وابنُ أبي حاتم (٣٢٧هـ) وعلي بن عمر الدارقطني (٣٧٥هـ) ومحمدُ بن عبد الله الحاكم (٤٠٥هـ) وابن الجوزي (٥٩٧هـ).

[٥] ابن سينا : "الإشارات" ٣٥٥/١

[٦] الغزالي : "المستصفى" ٣٨/١

[٧] انظر السابق والصفحة

[٨] الرازي: "المحصول" ٣٤٩/٤

[٩] السابق: ٣٥٠/٤-٣٥٤

[١٠] السابق: ٣٥٠/٤-٣٥٣

[١١] السابق: ٣٦٧/٤

[١٢] الرازي: "الملخص" ٩٨/ب.

[١٣] انظر السابق ٩٩/أ.

[١٤] الرازي: "المحصول" ٣٥١/٤

[١٥] ابن عابدين: "تكملة حاشية رد المحتار" ٤٩٨/٢

[١٦] علاء الدين الكاساني: "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع"، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ١١/ ص ٣٨٩

[١٧] انظر أبوحيانَ ومسكويه: "الهوامل والشوامل" ص ٢٩٠-٢٩٣، لكن مسكويه في حواره مع التوحيدي يُرجِع استخدامَ الفقهاءِ لتلك القاعدةِ إلى أنهم لا يُعنَون باليقين كالفلاسفة وإنما يُعنَون بالغالب والمشهور فقط ويَجزِمون بأقل تَثَبُّتٍ فإن تبين لهم ما يخالفُ قواعدَهم قالوا هو شاذٌ ولا عبرةَ بالشاذ والشاذُ لا حكم له بخلاف الفلاسفةِ فإنهم قد قرروا ذلك غايةَ التقريرِ خاصةً أرسطو ..ولكنه لم يَنفِ القاعدةَ في حد ذاتِها وإنما فرَّق بين استعمالِها لدى الفقهاء ولدى المتكلمينَ والفلاسفةَ والمقصدُ إنما هو بيانُ القاعدةِ وأنها لا خلافَ عليها بين الفقهاء والأصوليينَ وغيرِهم وليس هنا محلَّ إزالةِ التهم.

مجازفة العقل

د.أحمد إدريس الطعان

لقد جازف العقلُ الغربيُّ عندما اكتشف الخدعةَ الكنسيةَ فحَكم على كل الأديانِ بالنفي والإقصاء، وأصر على أن يبحث عن إجابةٍ للمعضلات الإنسانيةِ الكبرى بعقله المجردِ مستبعداً أي إمكانيةٍ لوجود وحيٍ صادق، أو دينٍ حق، فهل استطاع ذلك؟

لقد تنقَّل هذا العقلُ في عصر النهضةِ بين القولِ بحقيقتين إحداهُما فلسفيةٌ والأخرى لاهوتية، ثم قال بوحدةِ الوجود، ثم قال بإلهٍ دون نُبوة، ثم قال بتأليهِ الإنسانِ أو تأليهِ الطبيعة، ثم أنكر وجودَ الإله أو حَكم عليه بالموت ثم قال أخيراً: لا أدري!! وتقلَّبَ بين الماديةِ المطلقةِ والروحانيةِ المفرطة ، والحريةِ الكاملةِ والجبريةِ الشاملة، والأخلاقِ الوضعيةِ أو الأخلاقِ الدينيةِ ثم قال أخيراً: لا أدري!!

وأصبحت السمةُ الأساسيةُ التي تُميز عصرَ اليوم في الغرب والتي يُعبر عنها برتراند رَسِل هي الإحباطُ، واليأسُ، والقنوطُ من الوصولِ إلى المعرفة[١]. وإن ثمرةَ العلمانيةِ التي نجنيها في هذا العصر: اليأسُ الفكريُّ المرير، والعدميةُ، واللاأدريةُ، وانفصامُ الإنسانِ عن العالم[٢]، وإننا نعيش اليومَ فيما أُطلقَ عليه اسمُ عصرِ الشكِّ والقلق، والنسبيةِ، والسخريةِ من كل شيء[٣].

ولكن السؤال : هل كانت هذه هي مجازفةُ العقلِ الغربيِّ الأولى على طريقِ العلمانية؟

إذا تأملنا في تاريخ الفلسفةِ اليونانية، فإننا نجدُ فصلاً مشابهاً لما حدث في أوربا في العصور الحديثة، فقد أهملَ فلاسفةُ اليونانِ دلائلَ الوحي، وتعاليمَ الأنبياء، وذهبوا يقترحون بعقولهم أجوبةً لأسئلتِهم. فاقترح **طاليسُ** (٦٢٤-٥٥٠ق.م)، أن يكون أصلُ الكون هو الماء[٤].

ويَعدُّ **الشهرستاني** هذا الرأي قريباً من الوحي القرآني ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[٥]

ولذلك فهو ربما يقتبسُ من مشكاة النبوة[٦].

ولكن **أنكسمنيس** (٥٨٨-٥٢٤ق.م) رفض هذا واعتبرَ أن أصل الكون ليس الماء وإنما الهواء[٧]. ثم جاء **فيثاغورث** (٥٧٢-٤٩٧ق.م) فرأى رأياً مخالفاً وهو أن أصلَ الكونِ ليس الماءُ ولا الهواءُ وإنما هو العدد، وأن ما نراهُ موجوداً ما هو إلا مركبٌ من أعداد[٨].

وبعدَه **هرقليطس** (٥٣٥-٤٧٥ق.م) لم يقبل شيئاً من هذه الاقتراحاتِ فقال: إن أصل الكونِ هو النار، وكلُّ شيءٍ يخرج من النارِ ويعودُ إليها[٩].

أما **أمبذقليس** (٤٩٠-٤٣٠ق.م) فقد حاول أن يجمعَ بين آراءِ سابقيه ويُضيفَ إليها التراب، فقال: "إن مادة الكون مُشكّلةٌ من أربعةِ أصولٍ هي: (الماءُ والهواءُ والنارُ والترابُ) وأن كلَّ ما نراه من اختلافاتٍ بين الأشياءِ راجعٌ إلى نسبةِ المزيجِ بين هذه العناصرِ الأربعة"[١٠].

ونشير هنا إلى أن **الشهرستاني** ينقل عن **فيثاغورث** أنه التقى بسليمانَ عليه السلام وأخذ الحكمةَ من معدنِ النبوة[١١]، وأن **أمبذقليس** كان في زمن النبيِّ داوودَ عليه السلام فمضى إليه وتلقى العلمَ منه، وكذلك اختلَف إلى لقمانَ الحكيم عليه السلام، فاقتبسَ الحكمةَ منه[١٢].

والملاحظُ هنا أنه إما أن **الشهرستانيَّ** مخطئٌ ومصادرُه التي ينقل عنها ليست موثوقة، أو أن المصادرَ التي ينقل عنها يوسف كرم تواريخَ وفياتِ هذين الفيلسوفين غيرَ دقيقةٍ لأن **أمبذقليس** على ما ينقلُ **الشهرستاني** يلتقي مع داوودَ عليه السلام ، **وفيثاغورث** يلتقي مع سليمانَ عليه السلام وهو متقدمٌ على **أمبذقليس**، ومع ذلك يبقى هناك تساؤلٌ كيف يلتقي هؤلاءِ مع أنبياءِ الله عز وجل ثم تصدرُ عنهم مثلُ هذه الآراءِ الشاذةِ التي لا يمكن أن يُقرها الأنبياءُ عليهمُ السلام. فإما أن لقاءَهم مع الأنبياءِ ليس حاصلاً، أو أنه حصل ولكنهم لم يكترثوا لتعاليمِ النبوة، وأطلقوا العنانَ لعقولهم تتخرصُ في سجافِ الغيب.

وعلى كل حالٍ جاء بعد **أمبذقليس** كلٌّ من **ليوسبس وديمقريطس** فأسسا المذهبَ الماديَّ، كان للأولِ منهما دورُ التأسيس، وللثاني دورُ

الإذاعةِ والنشرِ حتى نُسب إليه، ونُسي الأول. ذهب هذان الفيلسوفانِ إلى أن مادةَ الكون تتألفُ من ذراتٍ لا تقبلُ التقسيم، وهي ما سمي «بالجواهرِ الفردة» وأن هذه الذراتِ هي عنصرٌ واحدٌ متجانس، تَشكَّل منها الكون[١٣].

في هذه الأثناءِ كان السوفسطائيونَ يجوبون شوارعَ أثينا يُعلمون الناسَ فنَّ الخطابةِ والبلاغةِ والجدل، وأنه لا يمكن الجزمُ بشيء، وأن الإنسانَ مقياسُ كل شيء[١٤]. وحاول **جورجياس** وهو أحدُ أقطابهم أن يُثبتَ ثلاثةَ أشياء: لا شيءَ موجود، وإن وُجد لا يمكن أن يُعرف، وإن عُرف فلا يمكن إيصالُ هذه المعرفةِ للآخرين[١٥].

ولكن جاء **سقراط** (٤٧٠ق.م) فتصدى للسوفسطائيين، وجعل غايةَ السؤالِ هي المعرفة، وليست السفسطة، يقول أنَّ حرفته هي نفسُ حرفةِ والدته التي كانت قابلةً، ولكن في حين كانت أمه تُوَلدُ النساء، كان هو يُولِّدُ العقول، فقد كان شُغلُه الشاغلُ إثارةَ الأسئلةِ المحرجة، وإيقاعَ الخصم، وإثباتَ صعوبةِ التعاريفِ الدقيقة، وكان يقول: "أنا لا أعرفُ إلا شيئاً واحداً ، هو أنني لا أعرف شيئاً"[١٦].

وأنجبَ **سقراطُ** تلميذين: **أفلاطون** (٤٢٩ق.م)، الذي أقام فلسفتَه على نظريةِ المُثُل، واعتبرها مصدرَ المعرفةِ لأنها دائمةٌ ثابتةٌ لا تتغير[١٧]، وكلُّ معارفنا - بنظره - ليست إلا تذكراً لما كانت تَعلمُه النفسُ عندما كانت تعيشُ في عالمِ المُثُلِ قبل أن تحلَّ بالجسم[١٨]. **وأرسطو** (٣٨٤–٣٢٢ق.م) الذي ابتكر المنطقَ[١٩]، وقال بأن الله ﷻ هو العلةُ الغائيةُ للكون، وهو الذي يسعى إليه الكلُّ فهو بذلك معشوقُ العالم، يحركهُ دون أن يتحركَ فهو إذن المحركُ الأول. وقال بأن الله ﷻ فكرة ، أي صورةٌ مجردة، ولكنه ليس صورةً لمادة، بل هو صورةُ الصورة، أو فكرةُ الفكرة، فهو المفكرُ بنفسه وذاتِه وهو في سعادةٍ أبديةٍ وتفكيرٍ دائمٍ في كمالِه وذاتِه[٢٠].

هذا التجريدُ الأرُسطيُّ المفرطُ لم يُعجب **زينو** (٣٤٢ق.م)[٢١]، مؤسسُ الرواقيةِ فعاد بالفلسفةِ إلى ما قبل **سقراط**، إلى المادية، ونفى أيَّ شيءٍ غيرَ المادة، ونفى أيَّ معرفةٍ لا تأتي عن طريقِ الحواس، حتى الروحُ عنده مادة، وحتى الباري ﷻ عنده مادة، واعتبر النارَ أصلَ العالمِ كما فعل هرقليطس مع إضافةٍ بسيطةٍ هي أنه اعتبر هذه النار هي الله ﷻ[٢٢].

راقت هذه الماديةُ **لأبيقور** (٣٤٢ق.م) ولكنه أعرض عن نار **هرقليطس**، وتبنى ذراتِ **ديمقريطس**، فوافقه على أنها أصلُ الوجود، وهو لم ينفِ وجودَ آلهة، ولكنه اعتبر هذه الآلهةَ متعددةً كثيرة، وتعيش في عالمٍ مستقلٍ عن عالم البشر، وهي في سعادةٍ دائمة، ولا تتدخلُ في شؤونِ الكونِ أو الإنسان[٢٣].

والفصلُ الأخيرُ من الفلسفةِ اليونانيةِ ينتهي بالشُكَّاكِ واللاأدرية، والحقُّ أننا لا نستطيعُ أن نزعمَ أن الشكَّ كان غائباً ثم وُجد، لأن الشكَّ مستمرٌ ومترافقٌ مع الفلسفةِ ولم ينفصل عنها لا في المرحلةِ اليونانية، ولا في المرحلةِ الأوربيةِ الحديثة، ولكنه في الفصلِ الأخيرِ من تلك المرحلتين يتفاقمُ حتى يُشكلَ مذهباً وتياراً له زعماؤه وفلاسفتُه، ولقد استمرَّ في المرحلةِ اليونانيةِ منذ القرنِ الثالثِ قبل الميلاد إلى نهايةِ القرن الثاني للميلاد تقريباً[٢٤].

وإمامُ الشُكاكِ هو **بيرون** أو **بيرو** (ت:٢٧٥ق.م) وإليه يُنسبُ مذهبُ الشكِّ واللاأدرية، فكلُّ قضيةٍ عنده تحتملُ السلبَ والإيجابَ بقوةٍ متعادلة[٢٥]، وقال: "لست أدري ولست أدري أني لا أدري"[٢٦]، وقال: "بالوقف التامِّ فنحن لا نستطيعُ أن نعرف شيئاً"[٢٧].

ومن تلاميذه **قرينادس** (٢١٤–١٢٨ق.م)، : أنكر أن تكون هناك علامةٌ للحقيقة، فتشككَ في العقل والحواسِّ وقال بالاحتمال والترجيح[٢٨].

وأناسيداموس: عاش في أواخرِ القرن الأولِ قبل الميلاد، يقولُ بالنسبيةِ المطلقة، وأن ما يراهُ كلُّ إنسانٍ حقاً فهو حقٌّ بالنسبة له، ولا يمكنُ معرفةُ الحقِ بذاته[٢٩].

وأغريبا: عاش في القرن الأولِ أو الثاني للميلاد وأكد حُججَ **أناسيداموس** ونصر أدلتَه، وأيدَ نسبيتَه المطلقة[٣٠].

وسكستوس: عاش في القرن الثاني أو الثالث للميلاد ومن كُتُبه "الحججُ البيرونية" وهو أيضاً نصيرٌ للشك واللاأدرية، ويردُّ على أصحابِ اليقين، وقد حاول أن يُفندَ منطقَ **أرسطو**، ويبين أنه لا يمكن الوصولُ إلى المعرفة فهي ممتنعةُ المنال[٣١].

وهكذا نجد أن العقلَ الغربيَّ ممثلاً في العقل اليونانيِّ والأوربيِّ قد جازف مرتين استهلَك فيهما قرابةَ ستةِ قرونٍ تقريباً، يبدأ بالسفسطةِ ثم يتقلبُ بين الآراءِ والاقتراحاتِ المختلفة، ثم لا يجدُ في النهايةِ إلا أن يرفعَ يديهِ ويعلنَ عجزَه وجهلَه ولا أدريته، لقد اعترفت الأغلبيةُ الساحقةُ من العقول في المرحلتين بوجود إلهٍ قادرٍ حكيم ، وكان الإلحادُ دائماً حالةً شاذَّةً، أفيعقلُ أن يتركَ الحكيمُ عبادَه هكذا في حيرةٍ وظلمةٍ يخبطون خبطَ عشواءَ دون أن يتداركهم برحمته وهدايته؟ لا بل إنه عز وجل تداركهم ولكنهم أعرضوا. والآن بعد أن جربوا مئاتِ السنين واعترفوا بعجزهم، ألم يأنِ لهذا العقل أن يصيخَ إلى الحق، ويصغي إلى الهدى، ويبصرَ النور؟

هوامش المقال

١. انظر: روبرت أغروس «العلم في منظوره الجديد» ص ١٦ ترجمة: كمال خلايلي –عالم المعرفة – الكويت عدد ١٣٤ .

٢. انظر: السابق ص ١٠٧ .

٣. انظر: كافين رايلي «الغرب والعالم» ص ٣٤٨ ترجمة: د. عبد الوهاب المسيري و د. هدى عبد السميع حجازي.

٤. انظر: الشهرستاني «الملل والنحل» ٢ / ٦٣ وزكي نجيب وأحمد أمين «قصة الفلسفة اليونانية» ص ١٩ ، ٢٠ .

٥. سورة هود : آية ٧ .

٦. انظر: الشهرستاني «الملل والنحل» ٢ / ٦٢ ، ٦٣ . قلت: إما أن طاليس لم يقبل أقوال الأنبياء، أو أن النقل عنه قد حُرّف.

٧. انظر: السابق ٢ / ٦٧ وأحمد أمين وزكي نجيب «قصة الفسفة اليونانية» ص ٢٥ ، ٢٦ .

٨. انظر: أحمد أمين وزكي نجيب «قصة الفلسفة اليونانية» ص ٣٢ ، ٣٣ والشهرستاني «الملل والنحل» ٢ / ٧٥ .

٩. انظر: زكي ونجيب وأحمد أمين «السابق» ص ٥٩ .

١٠. انظر: الشهرستاني «الملل والنحل» ٢ / ٧١ ، ٧٢ وأحمد أمين وزكي نجيب «قصة الفلسفة اليونانية» ص ٦٥ .

١١. انظر: الشهرستاني «الملل والنحل» ٢ / ٧٤ .

١٢. انظر: السابق ٢ / ٦٨ .

١٣. انظر: أحمد أمين وزكي نجيب «قصة الفلسفة اليونانية» ص ٧٢ .

١٤. انظر: السابق ص ٩٥ ، ٩٦ .

١٥. انظر: ص ٩٨ .

١٦. انظر: السابق ص ١١١ ويوسف كرم « تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٥٢ .

١٧. انظر: زكي نجيب وأحمد أمين «قصة الفلسفة اليونانية» ص ١٤٧ – ١٥٩ .

١٨. انظر: السابق ص ١٦٩ .

١٩. انظر: السابق ص ٢١٨ . هناك من يشكك في هذه المسلمة الفلسفية في العصر الحديث، ويؤكد أن هناك فلسفة هندية، بل منطقًا هنديًا لا يقل أصالة وعقلانية عن المنطق الأرسطي، كما لا يقل عنه قابلية للتعريف، بأنه «علم الفكر» و «علم قوانين العقل» و «علم نظرية المعرفة» انظر ماكوفلسكي «تاريخ المنطق» نقلاً عن جورج طرابيشي في كتابه «نظرية العقل» ص ١٠٣. قلت: وأضيف بأنه لا يمكن أن تكون الهند هي أول من اكتشف المنطق، لأن المنطق إذا كان قوانين عقليَّة بدهيَّة، فهو قد وجد منذ أن وجد الإنسان الأول على ظهر هذه الأرض، وإن الرسل الذي أرسلهم الله ﷻ للشعوب والأمم قد وجَّهوا الناس إلى التفكير السليم المنهجيِّ الموافق للوحي والعقل والفطرة، فليس المنطق حكراً على أمة من الأمم، وإنما هو هبة من الله ﷻ للإنسان، قال ﷻ :﴿وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ سورة البقرة آية : ٣١.

٢٠. انظر: أحمد أمين وزكي نجيب «قصة الفلسفة اليونانية» ص ٢٣٢ .

٢١. يذكر عثمان أمين تاريخ ولادة زينو على أنه ٣٣٦ق.م انظر: عثمان أمين «الفلسفة الرواقية» ص ٤٦ وعاش ٩٨ سنة انظر: ص ٤٩ .

٢٢. انظر: أحمد أمين وزكي نجيب السابق ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ . وانظر: د. عثمان أمين «الفلسفة الرواقية» ص ٢٤ ، ٤٦ ، ٥٦ .

٢٣. انظر: السابق ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

٢٤. انظر: يوسف كرم « تاريخ الفلسفة اليونانية « ص ٢٣٤ – ٢٤١.

٢٥. انظر: يوسف كرم «تاريخ الفلسفة اليونانية» ص ٢٣٥ .

٢٦. انظر: زكي نجيب وأحمد أمين «قصة الفلسفة اليونانية» ص ٣٠٩ .

٢٧. انظر: السابق ص ٣٠٧ .

٢٨. انظر: يوسف كرم «تاريخ الفلسفة اليونانية» ص ٢٣٦ .

٢٩. انظر: السابق ص ٢٣٧ ، ٢٣٩ .

٣٠. انظر: السابق ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

٣١. انظر: السابق ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

من كتاب

الإسلام يتحدى

دليل الآخرة

وحيد الدين خان

من أهم الحقائق التي يدعونا الدين إلي الإيمان بها: فكرة الآخرة. والمراد بها: أن هناك عالما غير عالمنا الحاضر ؛ وسوف نعيش في ذلك العالم خالدين ؛ وأن عالمنا هذا هو مكان للاختبار والابتلاء ، وجد فيه الإنسان لأجل معلوم ؛ وأن الله سوف ينهي هذا العالم حين يحين أجله لبناء العالم الآخر على طراز جديد ؛ وأن الناس سوف يبعثون مرة أخرى ؛ وسوف تعرض أعمالهم- خيرا أو شرا

– على محكمة الله الذي يجزي كل إنسان بما عمل في الحياة الدنيا.

أهذه النظرية صحيحة ؟ أم هي باطلة ؟ وهل هناك إمكان لهذه الآخرة ؟ . . سوف نعرض هنا بعض جوانب القضية.

* * *

أولا: إمكان الآخرة:

ليكن الجانب الأول من هذا العرض ، هو البحث عن (إمكان) وقوع الآخرة. فهل هنالك وقائع وإشارات تصدق هذه الدعوى؟

إن فكرة (الآخرة) تقتضي – أول ما تقتضي - ألا يكون الإنسان والكون في شكلهما الحالي أبديين ، وقد علمنا في الصفحات الماضية - بما لا يدع مجالا للشك - أن أبدية الكون والإنسان مستحيلة وأيقنا يقينا لا يتزعزع ، بأن الإنسان يموت وأن الكون سينتهي طبقا لقانون (الطاقة المتاحة). ولست أدري إذا ما كان هنا طريق للنجاة من هذه النهاية المروعة.

أ-مسألة الموت:

إن الذين لا يؤمنون بالعالم الثاني – الآخرة - يحاولون بدافع الغريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالما أبديا لأفراحهم ، ولذلك بحثوا كثيرا عن أسباب (الموت) حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الأسباب من أجل تخليد الحياة ، ولكنهم أخفقوا إخفاقا ذريعا ، وكلما بحثوا في هذا الموضوع ، رجع إليهم بحثهم برسالة جديدة عن حتمية الموت ، وأنه لا مناص منه.

(لماذا الموت ؟). . هناك ما يقرب من مائتي إجابة عن هذا السؤال الخطير الذي كثيرا ما يطرح في المجالس العلمية ، منها:

(فقدان الجسم لفاعليته) ، (انتهاء عملية الأجزاء التركيبية) ، (تجميد الأنسجة العصبية) ، (حلول المواد الزلالية القليلة الحركة ، محل الكثيرة الحركة منها) ، (ضعف الأنسجة الرابطة) ، (انتشار سموم (بكتريا) الأمعاء في الجسم). . وما إلى ذلك من الإجابات التي تتردد كثيرا حول ظاهرة الموت.

إن القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل. . فإن الآلات الحديدية والأحذية والأقمشة كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود ، فأجسامنا أيضا تبلى وتفقد فاعليتها كالجلود التي نلبسها في موسم الشتاء. ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا لأن المشاهدة العلمية للجسم الإنساني تؤكد: أنه ليس كالجلود الحيوانية ، والآلات الحديدية ، وليس كالجبال. . وأن أقرب شيء يمكن تشبيهه به هو ذلك

(النهر) الذي لا يزال يجري منذ آلاف السنين على ظهر الأرض فمن ذا الذي يستطيع القول بأن النهر الجاري يبلى ويهن ويعجز؟ ! بناء علي هذا الأساس يعتقد الدكتور (لنس بالنج) أن الإنسان أبدي إلي حد كبير نظريا ؛ فإن خلايا جسمه آلات تقوم بإصلاح ما فيه من الأمراض ومعالجتها تلقائيا ! وبرغم ذلك فإن الإنسان يعجز ويموت ؛ ولا تزال علل هذه الظاهرة أسرارا تحيّر العلماء.

إن جسمنا هذا في تجدد دائم ، وإن المواد الزلالية التي توجد في خلايا دمائنا ، تتلف كذلك ثم تتجدد ؛ ومثلها جميع خلايا الجسم تموت وتحل مكانها خلايا جديدة ؛ اللهم إلا الخلايا العصبية. وتفيد البحوث العلمية إن دم الإنسان يتجدد تجددا كليا خلال ما يقرب من أربع سنين ، كما تتغير جميع ذرات الجسم الإنساني في بضع سنين. ونخرج من هذا بأن الجسم الإنساني ليس كهيكل ، وإنما هو كالنهر الجاري ؛ أي أنه (عمل مستمر). ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هي وهن الجسم وفقده لقوته ، فإن الأشياء التي فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل ، ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت ، فسبب الموت موجود في مكان آخر ، وليس في الأمعاء والأنسجة البدنية والقلب.

ويدعي بعض العلماء أن الأنسجة العصبية هي سبب الموت ، لأنها تبقى في الجسم إلى آخر الحياة ولا تتجدد. ولو صح هذا التفسير القائل بأن النظام العصبي هو نقطة الضعف في الجسم الإنساني ، فمن الممكن أن نزعم أن أي جس خال من (النظام العصبي) لابد أن يحيا عمرا أطول من الأجسام ذات النظام العصبي ، ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا ، فإن هذا النظام لا يوجد مثلا في الأشجار ، وبعضها يعيش لأطول مدة ، ولكن شجرة القمح التي لا يوجد بها هذا النظام العصبي لا تعيش أكثر من سنة ، وليس في كائن (الأميبا) جهاز عصبي ، وهي مع ذلك لا تبقي علي قيد الحياة أكثر من نصف ساعة ، ومقتضى هذا التفسير أيضا أن تلك الحيوانات التي تعد من (نسل أعلى) ، والتي تتمتع بنظام عصبي أكمل وأجود لابد أن تعيش مدة أطول من تلك التي هي أحقر نسلا وأضعف نظاما. ولكن الحقائق لا تؤيدنا في هذا أيضا ؛ فإن السلحفاة والتمساح وسمكة (باتيك) أطول عمرا من أي حيوان آخر ، وكلها من النوع الثاني – حقير النسل وضعيف النظام.

* * *

لقد أخفقت تماما تلك البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت أمرا غير يقيني يمكن ألا يقع فبقي الاحتمال الذي أكدته الأزمان ، وهو أن يموت الإنسان في أي عمر ، وفي أي زمن ، ولم نستطع العثور على أي إمكان يمنع الموت رغم جميع الجهود.

لقد بحث الدكتور (الكسيس كيرل) هذه المشكلة في مقال طويل بعنوان (الزمن الداخلي) فذكر الجهود المخفقة التي بذلت في هذا الصدد ، ثم قال:

(إن الإنسان لن يسأم أبدا من البحث عن (الخلود) والسعي وراءه ، مع أنه لن يظفر به إلى الأبد ، فتركيبه الجسماني يخضع لقوانين معينة ، إنه يستطيع إن يوقف الزمن (الفسيولوجي) لأعضاء الجسد حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة ، ولكنه لن يتغلب على الموت أبدا).

(ب) ظواهر وأمثلة طبيعية:

في ضوء هذه الوقائع لم تعد مسألة نهاية العالم غير مفهومة ، فنحن على علم بالقيامات الصغرى التي تقع علي سطح الأرض ، وهي التي ستحدث مرة أخرى علي نطاق أوسع ، حتى تشمل الأرض المأهولة كلها.

إن الظاهرة الأولى التي تنذرنا بإمكان القيامة هي الزلازل. . . فبطن الأرض يحتوي على مادة شديدة الحرارة ، نشاهدها عندما ينفجر البركان وهذه المادة تؤثر على الأرض بشتى الطرق ، فمنها ما تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة وما نحس به من الهزات الأرضية التي نسميها (الزلازل) إنها لا تزال كلمة رهيبة في حياة الإنسان المعاصر ، رغم تقدم العلوم والتكنولوجيا كما كانت رهيبة في حياة الإنسان القديم. هذه الزلازل هي حملة الطبيعة ضد الإنسان الذي لا يملك إزاءها شيئا ، فالخيار كله في يد الفريق الأول. عن الإنسان لا يملك شيئا يقاوم به الزلازل فهي نذير يذكره دائما بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية ، لا يفصله عنها سوي قشرة جبلية رقيقة ، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلو مترا وهذه القشرة ليست ، بالنسبة إلى الكرة الأرضية ، إلا

بمثابة القشرة من ثمرة التفاح.

يقول عالم الجغرافيا (جورج جاموف): (إن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان ، وبكلمة أخرى: نحن واقفون علي ظهر لغم (ديناميت) عظيم ، ومن الممكن أن ينفجر في أي وقت ليدمر النظام الأرضي بأكمله).

وهذه الزلازل تجتاح جميع نواحي الأرض ولا تخلو الجرائد أي صباح من أخبارها ، ولكن يكثر وقوعها في الأماكن التي توجد بها البراكين لاعتبارات جغرافية. وأقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال إقليم (شنسي) الصيني الذي وقع عام ١٥٥٦م. ولقي أكثر من ٨,٠٠٠,٠٠٠ نسمة مصرعهم في هذه الكارثة. وقد وقع زلزال في (لشبونة) عاصمة البرتغال عام ١٧٥٥م ، فدمر المدينة كلها ، وأباد ثلاثين ألفا من الناس في ست دقائق. وقد قيل: إن هذا الزلزال هز ربع أروبا. ومن هذا النوع من الزلازل ما وقع في ولاية (آسام) الهندية عام ١٨٩٧م ، وهو يعد من الزلازل الخمسة الكبرى في التاريخ فقد أحدث دمارا وخرابا عظيمين في منطقة شمال الهند ، كما غير اتجاه النهر العملاق (برهام بوترا) ، وطفرت هضبة (إيفرست) بجبال الهملايا ، فارتفعت مائة قدم !

إن هذه الزلازل (قيامة) على نطاق غير واسع. . . فعندما تنفجر الأرض بصوتها المخيف ، ودويها الرهيب ، وعندما تتساقط الجدران ، وسقف الأبنية المسلحة الفخمة ، حتى كأنها أوراق (الكوتشينة) ، وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها ، وأسفلها أعلاها ، وعندما تحل الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى في ثوان معدودة ، وعندما تسير طوابير النعوش ، وتتراكم على ساحات المدن وطرقها تراكم الأسماك على ساحل البحر- فتلكم هي قيامة الزلزال.

وفي تلك اللحظة يشعر الإنسان بعجزه أمام قوى الطبيعة ، فإن الزلازل لا تقرع أبواب المدن إلا بغتة ، دون سابق إذن أو إنذار ، والبلية كل البلية في أن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل ، ولا بموعد وقوعها ، وهي في نفسها تنبئ عن قيامة كبرى ، سوف تفجؤنا غداة يوم على غرة منا ، إن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها ، كما يشاء.

وهذه هي حال الفضاء الخارجي ؛ فالكون فضاء لا حدود له ، تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها ، هي (السيارات والنجوم) ، مثالها كملايين الخذاريف التي تدور على سطح معين بأقصى سرعة يمكن تخيلها. . وهذا الدوران يمكن أن يتحول في أي يوم إلى صدام عظيم لا يمكن تصوره. وفي تلك اللحظة الرهيبة يكون ما في الكون أشبه بآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية ، وهي تواصل رحلتها في الجو ، ثم تصطدم كلها مرة واحدة! ! إن اصطدام الأجرام السماوية ليس بغريب مطلقا بل الغريب حقا هو عدم وقوع هذا الاصطدام ؛ فدراسة علم الفلك تؤكد إمكان اصطدام الأجرام السماوية ، والحديث عن وجود النظام الشمسي يدور حول وقوع صدام كبير بين بعض الأجرام السماوية قديما ؛ فإذا استطعنا أن نتصور هذا التصادم علي نطاق أوسع لاستطعنا أن نفهم جيدا ذلك (الإمكان) الذي نحن بصدده. . فهذا الواقع هو بعينه ما نسميه. . (القيامة).

إن فكرة (الآخرة) التي تقرر أن نظام الكون الموجود حاليا سوف يدمر يوما ، لا تعني سوى أن واقع الكون الذي نشاهده في صورة صغيرة أولية ، سوف يتجلى يوما في صورة نهائية كبرى. فالقيامة حقيقة معلومة في أعماقنا ، فنحن اليوم نعرفها في حد (الإمكان) ولسوف نلقاه غدا في صورة الواقع.

* * *

(ج) الحياة بعد الموت:

المسألة الثانية في هذا البحث هي مسألة الحياة بعد الموت.

(هل هناك حياة بعد الموت) ؟؟ هذا السؤال يتردد دائما في العقل الحديث ، ثم يستطرد قائلا: (لا. . . لا حياة بعد الموت ، لأن الحياة التي أعرفها لا توجد إلا في ظروف معينة من تركيب العناصر المادية. وهذا التركيب الكيماوي لا يوجد بعد الموت ، إذن فلا حياة بعد الموت).

ويعتقد (ت. ر. مايلز) بأن: (البعث بعد الموت حقيقة تمثيلية ، وليس بحقيقة لفظية). ثم يضيف قائلا:

(إنها قضية قوية عندي أن الإنسان يبقى حيا بعد الموت ، وهذه القضية من الممكن – لفظيا - أن تكون حقيقة ، وهي قابلة لاختبار صحتها أو بطلانها بالتجربة ، ولكن المسألة الرئيسية في طريقنا هي أننا لا نملك وسيلة لمعرفة الإجابة القطعية عن هذا السؤال إلا بعد الموت ، ولذلك يمكننا أن نقيس).

وحيث إن قياسه لا يصدق هذه القضية فهي ليست بحقيقة لفظية. وقياسه كما يلي:

(بناء على علم الأعصاب (Neurology) لا يمكن معرفة العالم الخارجي والاتصال به ، إلا عندما يعمل الذهن الإنساني في حالته العادية ، وأما بعد الموت فهذا الإدراك مستحيل ، نظرا إلى بعثرة تركيب النظام الذهني).

ولكن هناك قياسات أخرى أقوى من هذا القياس ؛ وهي تؤكد أن

بعثرة الذرات المادية في الجسم الإنساني لا تقضي على الحياة ؛ فإن (الحياة) شيء آخر ، وهي مستقلة بذاتها باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها.

ومن المعلوم أن الجسم الإنساني يتألف من أجزاء (ذرات) ، تسمي (الخلايا) ، ومفردها: خلية (Cell). وهي ذرات صغيرة جدا ومعقدة ، يزيد عددها في الجسم الإنساني العادي على ٢٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ خلية. ويبدو أن هذه الخلايا مثل الطوب الصغير ، ينبني منه هيكل أجسامنا. ولكن الفرق بين طوب أجسامنا والطوب الطيني شاسع جدا . . فطوب الطين الذي يستخدم في العمارات يبقى كما هو – نفس الطوب الذي صنع في المصنع ، واستخدم في البناء للمرة الأولى. . بينما يتغير طوب هياكلنا في كل دقيقة ، بل في كل ثانية ، إن خلايا أجسامنا تنقص بسرعة ، كالآلات التي تتآكل باحتكاكها واستهلاكها ، ولكن هذا النقص يعوضه الغذاء ، فهو يهيئ للجسم قوالب الطوب التي يحتاج إليها بعد نقص خلاياه واستهلاكها. فالجسم الإنساني يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة ، وهو كالنهر الجاري المملوء دائما بالمياه ، لا يمكن أن نجد به نفس الماء الذي كان يجري فيه منذ برهة ، لأنه لا يستقر فالنهر يغير نفسه بنفسه دائما ، ومع ذلك فهو نفس النهر الذي وجد منذ زمن طويل ولكن الماء لا يبقى ، بل يتغير.

وجسمنا مثل النهر الجاري ، يخضع لعملية مستمرة حتى إنه يأتي وقت لا تبقى فيه أية خلية قديمة في الجسم ، لأن الخلايا أخذت مكانها. هذه العملية تتكرر في الطفولة والشباب بسرعة ، ثم تستمر بهدوء ملحوظ في الكهولة. ولو حسبنا معدل التجدد في هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشر سنين. إن عملية فناء الجسم المادي الظاهري تستمر ، ولكن الإنسان في الداخل لا يتغير ، بل يبقي كما كان علمه وعاداته وحافظته وأمانيه وأفكاره ، تبقى كلها كما كانت. إنه يشعر في جميع مراحل حياته بأنه هو (الإنسان السابق) ، الذي وجد منذ عشرات السنين ولكنه لا يحس بأن شيئا من أعضائه قد تغير ، ابتداء من أظافر رجليه حتى شعر رأسه.

ولو كان الإنسان يفنى الجسم ، لكان لازما أن يتأثر على الأقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل ولكننا نعرف جيدا أن هذا لا يحدث ؛ وهذا الواقع يؤكد أن (الإنسان) أو (الحياة الإنسانية) شيء آخر غير الجسم ، وهي باقية رغم تغير الجسم وفنائه ، وهو كنهر مستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة ! وهذا هو الأمر الذي دعا عالما أن يصف الإنسان: بشيء مستقل بذاته وباق غير متغير ، رغم التغيرات المتسلسلة. فهو يعتقد:

(أن الشخصية هي عدم التغير في عالم التغيرات) – (Personality-is Changeless in Change)

ولو كان الموت فناء (للإنسان) ، فمن الممكن أن نقول – بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوي الذي يجري في الجسم – إن الإنسان قد مات ، وإنه يعيش حياة أخري جديدة بعد موته ! ومعناه أن الرجل الذي أراه في الخمسين من عمره ، وهو يمشي في الشارع على رجليه ، قد مات خمس مرات في هذه الحياة القصيرة ؛ فإذا لم يمت هذا الإنسان بعد فناء أجزاء جسمه المادية خمس مرات ، فكيف أستطيع أن أعتقد بأنه مات في المرة السادسة على وجه اليقين؟ ولا سبيل له الآن إلى الحياة؟

إن بعض الناس لن يسلموا بهذا الاستدلال ، وسيقولون: إن العقل ، أو الوجود الداخلي الذي نسميه (إنسانا) ليس بشيء آخر ، ولم يوجد إلا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجي ، وإن الأفكار والأماني لا توجد خلال العمل المادي إلا كالحرارة التي توجد نتيجة احتكاك قطعتين من حديد!

إن الفلسفة الحديثة تنكر (الروح) بشدة ، ويعتقد السير جيمز: أن (الشعور) لا يوجد كوحدةEntity، وإنما هو وظيفة Function ، وتفاعل وتنسيق Process. . وقد أصر الكثيرون من فلاسفتنا المحدثين على أن (الشعور) في ذاته ليس إلا التفاعل والرد العصبي لما يحدث من حركة ونشاط في العالم الخارجي. وبناء على هذه النظرية لا مجال للتساؤل عن إمكان الحياة بعد الموت ، نظرا لتحلل النظام الجسماني ، ولأن المركز العصبي في الجسم لم يعد له وجود ، وهو الذي كان يتفاعل وينسق مع العالم الجسماني الخارجي ؛ وهم يعتقدون بناءا على هذا أن نظرية الحياة بعد الموت أصبحت غير ذات أساس عقلي أو واقعي.

سوف أقول: إنه لو كانت هذه هي حقيقة الإنسان فلنجرب أن نخلق إنسانا حيا ذا شعور ، ونحن – اليوم – نعرف بكل وضوح جميع العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان ، وهذه العناصر توجد في الأرض وفي الفضاء الخارجي ، بحيث يمكننا الحصول عليها ، وقد علمنا دقائق بناء النظام الجسماني ، وعرفنا هيكله وأنسجته ، ولدينا فنانون مهرة يستطيعون أن يصنعوا أجسامنا كجسم الإنسان ، بكل مواصفاتها ، فلنجرب – لو كان معارضو الروح يصرون علي حقيقة مبدئهم – ولنصنع مئات من أمثال هذه الأجسام ، ولنضعها في شتى الميادين في بقعة الأرض الفسيحة ، ثم لننتظر ذلك الوقت الذي تمشي فيه هذه الأجسام وتتكلم وتأكل (بناء على تأثيرات العالم الخارجي) !؟

تمكين المرأة من منصب مسؤول عن التمكين

بقلم أميرة الجلباب

ولازال البحثُ عن التمكينِ مستمرًا ..
وأصواتُ المناداةِ بـ «تمكينِ المرأة» تملأ المكان !
والصدى يتردد .. في أروقة المؤتمرات والندوات .. ومقالات الصحف والمجلات ..
وكأيِّ مصطلح كهذا المصطلح الجميل الفضفاض ذي الثوب القشيب .. تتلقفهُ الآراء والمفاهيم .. لتتزيَّنَ به ..
وتتجمل .. وقد ينفعُها أيضًا في الترقيع!

وضـــعُ المـــرأة !

إن الحقيقة التي تجدر الإشارة إليها بدايةً هي أن وضع المرأة اليوم في نظر «المثقفين» و«التنويريين» بات مهددًا بالخطر المحدِق من قِبَل بعض تيارات «الرجعية» الجاهلية وقوى التخلف «المتعصبة»، التي تأبى إلا أن تُسقِط المرأة وتسقط عليها أفكارَها «الظلاميةَ» وتسربلَها بسربال «الجمود»؛ لتبقى طيلة حياتها تعيش كالضب في «جُحر التقليد الأعمى» ! .. فتؤخرَها وتؤخرَ المجتمعَ معها عن ركب التقدم والرقي، وتعرقلَ - بهذه النظرةِ «الدونيةِ» للمرأة - المجتمعَ بأسره عن مسيرة التنميةِ والتطور الحضاري.

وإن هذا الوضعَ الحرجَ بحاجةٍ ماسةٍ في هذا العصر إلى وقفةٍ مجتمعيةٍ حاسمةٍ وشَجاعةٍ للسعي بقوةٍ نحو «تحريرِ المرأة» من فكر هؤلاء «الظلاميين» !، بحاجةٍ إلى ثورةٍ فكريةٍ ودفعةٍ قويةٍ لتحريرِها وتحريرِ الوعي العام من سيطرةِ الموروثِ الاجتماعي والفكري البائدِ «الدخيل» ! وتغلغله العميق، وقيودِ «الاتباع الأعمى» لأُممِ الأرض !

هذه الوقفةُ المصيريةُ التي – للأسف - لم يفلح الوعيُ المجتمعيُّ العام حتى الآن في اتخاذها، فترى منه المفارقاتِ العجيبةَ التي تكشفُ مدى جهلِه المُركب بأهمية دورِ المرأةِ في المجتمع وبحقوقِها «المسلوبة» !، فتجدُ هذا المجتمع – رغم كثرةِ مفكريه وعباقرتِه – يسعى بهمة إلى تكريم هذا الجنس البشري (المرأة) وتمكينِها بطريقةٍ تستحق الرثـاء !

هذا المجتمعُ «المُغيَّب» لمَّا أراد أن يُكرمها؛ قام إليها .. قام إلى هذا المخلوق الرقيقِ الذي هو كالطائر الجميل .. وبدل أن يضعَ على رأسه إكليلَ الزهور .. اتخذ سبيلاً في تكريمه عجبًا .. إذ أخذ ينتزعُ من هذا الطائر ريشَهُ !.. ريشةً ريشةً .. غيرَ مبالٍ بصراخهِ والألم .. ثم ماذا ألبسه؟ .. ألبسه – من فرط غفلته - فروةَ خروفٍ، وذيلَ قردٍ، وعُرفَ ديكٍ، وجلد أفعى !

ثم نظر إليه مبتسمًا ابتسامةَ الخائن المعتوه، وقال: انظر .. لقد مكّنـاكَ الآن ! .. فهنيئًا لك .. البس جديدًا .. وعِش عيشًا ضنكًا .. ومُت مسخًا مختنقًا.

وبأسلوبٍ مفرطٍ في السذاجة والسطحية، بناءً على نظرتِه للتمكين على أنه منافَسةٌ حيوانيةٌ قائمةٌ على النوع البشري، رأى هذا المجتمعُ من ثُقبه المُعَتَّم أن أعظمَ تقديرٍ، وأفضلَ منحة، وأعلى مكانة، يمكن أن يتصدق بها على هذا المخلوق أن يخلع عليه من مناصبِ العبوديةِ ما يُرضي «أسياده» !

وكمحاولاتٍ مستميتةٍ لهذا التكريم قام يجعلها تارةً منافِسةً شرسةً «مُرشَحةً» للانتخابات! وتارةً ينادي بـ »توزيرِها« ليكللها بالأوزار !، وتارةً يجعلها «قاضيةً» تحكم بالإعدام ! .. وتارةً «ضابطةً» مهَدَّدةً بالقتل ! .. وتارةً «مأذونة» جميلةً تغري العريس بفسخ العقدِ قبل أن يعقده ! .. أو يستخدمُها إن شاء سائقةً لسيارةِ أجرةٍ .. أو عاملةَ نظافةٍ .. أو حتى «حارسةً» ليليَّةً تجري خلف اللصوص !

ولم يكتفِ هذا المجتمعُ العبقريُّ بهذه المناصب «الشَرَفية»، بل إمعانًا منه في التكريم والتمكين أقنعها بضرورة أن تثبت وجودَها وتُحققَ ذاتَها – طبعاً على طريقته الخنفشاريةِ تلك – فقال لها: اسمعي .. ليس زوجُك بأحقَ بالعصمة منك ! .. ولا كل الرجالِ أقدر على «الكدح» والكسبِ منك .. ولا أحق بخوضِ المعمعة .. ولا قيادةِ السيارةِ .. ولا حتى نزولِ السوق والتسوقِ وشراءِ الجرجيرِ منك ! .. انـزلي أنتِ ! .. وهذا كلُّه لا يخالف الشرع .. العين بالعين والرأس بالرأس !

فكانت نتيجةُ هذا التكريم المهيب ..

أن أصبح الطيرُ وقد أنكر نفسَه فلا هو في العير ولا في النفير..

حين نزلت المَلِكـةُ من على عرشِها لتشتري الجرجير!

انطفأ من يومها ضوءُ الشمسِ ولم تشرق من جديد ..

فأيُّ ذنبٍ يتحمله هذا الوعي الضرير ؟!

ومن وراء هذا المشهد الكئيب .. امتدت بعضُ الأيدي الملطخةِ بالجريمة .. امتدت في الظلام وهي غريبة .. وأخذت تصفقُ بحرارة، وتُردد: رائع .. إنجاز .. تقدُّم .. مساواة .. إلى الأمام سِر !

تدعمُ وتؤيد، إن لم تكن هي المحركةُ بالفعل !

وإن لم تكن «نظريةَ مؤامرة» .. فهي منهجُ إبليسَ التخريبيِّ في البشريةِ ووعدُه الذي قطعه على نفسه بإتعاس من اتبعه إلى يوم الدين.

ومن الحكمة البالغة أن يُعد عمل المرأة في الإسلام في أصله أمرًا ثانويًا .. لكنهم أرادوه لها أن يكون ضرورة ومبدأ تقاتل من أجله، ثم قاموا يُحَيُّون استبسالها في التمكين فيه.

{وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى}

بقليل من التأمل في هذه الآيةِ الكريمة نجد أنها جاءت في سياق قصة نَذرِ امرأةِ عمرانَ ما في بطنها مُحررًا لمهمةٍ معينة، وذُكِرت هذه الآية تحديدًا في جملة معترضةٍ عندما وضعتها أنثى !! .. وكأن هناك إشارةً إلى اختلافٍ ما، سيطرأُ على كل ما رسمته الأمُّ وخططت له مسبقًا، اختلافٍ في المخطط نتج عن اختلافِ النوع، اختلافٍ يدور حول «المهامِّ» و»الوظائفِ» التي تأهلَ لها كلُّ نوعٍ تأهُلاً فطريًا نفسيًا وعقليًا وبدنيًا، وكان سبب هذا التأهل ما فُطرَ عليه كل نوع منذ البداية .. انظر كيف ميَّز الله تعالى الخبيرُ بخلقه وهو الأعلمُ بهم بين النوعين في هذه القضية، فتميَّزَ كُلٌّ منهما في تخصُّصِه الوظيفي ودَورِه في الحياة !

حقيقة القضية !

إن تمكينَ المرأة – بهذه الصورة وهذا المفهوم العجيب – ظاهرةٌ تُحتمُ علينا أن نتأمل في حقيقتها وأسبابها ومعناها بعمقٍ أبعد، لا مجردَ أن نتفكهَ بها، ولا أن نقفَ عند البحثِ عن الحكمِ الشرعي من تولي المرأةِ هذه المناصبِ فحسب، أو نستسلمَ للانجرارِ خلف الجدلِ والمناقشات التي ربما يُراد بها التعميةُ عن الأبعاد الحقيقية، وتغييبُ الوعي العامِّ عن المغزى الحقيقيِّ من ورائها.

ما هي حقيقةُ هذه القضية، وماذا وراءَها؟.. سؤالٌ يطرح نفسَه !

- هل تمكينُ المرأةِ من أي منصب – طالما أثبتت تفوُّقَها وتميُّزها – بالتساوي مع الرجل وذلك لتحقيق التنميةِ والرقي، هو الهدفُ من القضية؟ كما هو مُعلن .. أم .. أن الهدفَ الحقيقيَّ من هذا النوع من التمكين هو تحطيمُ قداسةِ النصِّ القرآني: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} في نفوس المسلمين أو التشكيك فيه؟

- هل الهدف هو تمكينُ المرأة مما يخدمُ مصلحتَها ومصلحةَ المجتمع ويدفعُ عجلةَ التطور .. أم .. أن الهدف هو الطعنُ في الأصول الشرعية بطرقٍ ملتويةٍ وبأسلوبِ التَّقيةِ للوصول لأهدافٍ بعيدةِ المدى، والقدحِ في الثوابتِ بروحٍ

حاقدةٍ مريضة، أعمى الحقدُ صاحبَها حتى جعله لا يستنكفُ من الفعل القبيح في وَضح النهار.

- هل الدافعُ هو وجودُ حاجةٍ فعليةٍ دفعت المرأةَ أو المجتمعَ لذلك .. أم .. الدافعُ هو الضيقُ والتبرمُ من نصوصِ الشرعِ والرغبةُ في الثورةِ عليها ؟!

- هل الهدفُ هو «تمكينُ المرأة» .. أم .. «زعزعة مكانتِها» المصونةِ المُكرَّمةِ في النفوسِ وقداسةِ وضعِها في الحياة ودَورِها الحقيقيِّ الفعَّالِ في المجتمع؟!

- أم .. هي مفرقعاتٌ ملونةٌ (كالطلعاتِ التجسسيةِ) لتلهيةِ العقليةِ الساذجةِ المتفشيةِ في أوساطِ العوامِّ وجسِّ نبضِ الوعيِ العامِّ قبل الحربِ لمعرفة مدى إفاقتِه وتفطُّنِه لما يُحاكُ من خلفِه وذلك عن طريقِ عاملٍ حساسٍ من عواملِ النصرِ والهزيمةِ ألا وهو (المرأة)؟!

- ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾؟!

تحليـلُ القضيـة !

دعونا نفترضُ مبدئيًا أن الهدفَ النهائي – كما هو مُعلن – من «تمكينِ المرأة» هو تحقيقُ التنميةِ في المجتمع، وهو هدفٌ مشروعٌ في حدِّ ذاتِه.

وبما أن الهدَفَ مشروعٌ والسببَ «حمّالُ أوجُهٍ» فإن القانونَ الاجتماعيَّ المطلوبَ إثباتَه أصبح على هذا النحو: (تمكينُ المرأةِ يؤدي إلى التنمية) ..

وأصبح مثلَ معادلةٍ رياضية يكون المطلوبُ فيها التعويضُ عن مصطلح «تمكينِ المرأة» -ذلك المصطلحُ الفضفاضُ المحتمِلُ لعدةِ معانٍ - بأحدِ المفاهيمِ المطروحةِ على الساحة، وإثباتُ أيِّ المفاهيم سيؤدي إلى النتيجةِ المطلوبةِ وهي (التنمية)، وما المفاهيمُ التي لن تؤدِّيَ إليها إطلاقًا.

١- **فالمفهومُ الأول** : لـ«تمكين المرأة» هو: (حقُّ تولي المرأة جميعَ الوظائفِ التي يَشغلها الرجل في سلطات الدولة الثلاث (التشريعية – التنفيذية – القضائية)، وحقُّ تولي جميع الوظائفِ العامةِ على اختلاف درجاتِها، بشروطٍ تساوي بينها وبين الرجال، دون أي تمييز)، كما جاء في الاتفاقياتِ الدوليةِ المعنيةِ بحقوق المرأة.

٢- **المفهومُ الثاني** : لـ «تمكين المرأة» وهو المفهومُ الإسلامي الذي كفله لها الشرع، وهو: (حقُّ المرأةِ في التوعيةِ بحقوقها ودورِها ومسئوليتِها ومعنى وجودِها .. والحفاظِ على كرامَتِها لاستخلافِ الله تعالى لها في أرضِه، وتكريمِه لها، والتأكيدِ على المشاركةِ في كلِّ ما يتصلُ بحياةِ الإنسانِ ومستقبلِه – حسب الضوابطِ التي شرعها مستخلِفُها سبحانه، وتمكينِها من ذلك كله في حدودِ الشرع).

فأصبح هناك قانونان اجتماعيّان مطلوبًا إثباتَ صحتِهما أو صحةِ أحدِهما أو عدمِ صحةِ أيٍّ منهما على الإطلاق.

والسبيلُ إلى ذلك هو البحثُ عن طريق علم الاجتماعِ الذي يهدفُ للتعرفِ على المجتمعاتِ واكتشافِ القوانينِ التي تحكُمها ودراسةِ المستقبل، باعتبارِ المجتمع جزءًا من الكونِ وتنظيمُ الحياةِ فيه يخضعُ لقوانينَ وقواعدَ يمكن اكتشافُها عن طريق استخدامِ منهجٍ علميٍّ يعتمدُ على المشاهدةِ المنظمةِ والتفسيراتِ المنطقية.

ويَستخدمُ أسسًا منهجيةً وقواعدَ في دراسته العلميةِ تُمكن من تحويل السلوكياتِ إلى واقعٍ منظم، بمعنى أنها تُقدمه في شكلٍ منطقي - يعتمدُ على النظرِ في الحقائق وتمحيصِها وليس على الظن أو الخيال - وذلك من خلال صياغةِ مفهوماتٍ يتم من خلالها تنظيمُ هذا الواقع.

دعونا نتأملُ بالتدريج !

مبدأُ التخصص

بالنظر إلى مفهوم المجتمعاتِ المتقدمةِ نجدُ أنها تقومُ على أحدِ المبادئ العلميةِ وهو مبدأُ «التخصصِ الدقيق»، و«تقسيمِ العمل» بين الأفرادِ والجماعات.

نستفيد من ذلك أن التخصصَ الدقيق وتقسيمَ العملِ أمرٌ ضروريٌّ لتحقيق التقدمِ والتنمية، وهذا المبدأُ يتعارضُ مع مبدأ المساواةِ في الوظائف - تعارضًا مطلقًا - بين نوعين من الأفرادِ كلٌّ منهما يصلحُ - عمليًا وفطريًا - لدورٍ معين.

(فإن كان أحدُ النوعينِ يصلح – مثلاً – للقيام على رضاعةِ الأطفالِ وملازمَتِهم، فإن النوعَ الآخرَ يصلح - مثلاً - لقيادة المدرعاتِ أو إقامةِ الجسور، وغيرِها من المهنِ الشاقةِ .. وهذا ما أثبتته دراساتٌ عديدةٌ من أن قدرةَ المرأةِ على التحملِ تقل كثيرًا عن قدرةِ الرجل، وذلك في بعض الجوانب، أما في الجوانبِ التي اختصها الله تعالى بها، كالحملِ والإرضاعِ ورعايةِ شؤونِ الأبناءِ ومتابعةِ أمورِ البيت - وغيرِها من الأمور - فلديها قدرةٌ على تحمُّلِها أكبرُ مما للرجل).

لكننا نجدُ أن المفهومَ الأولَ (الغربي) لا يعترفُ بهذا المبدأ !

جاء في تقريرِ مؤتمرِ البيئةِ والتنمية، المنعقد في ريودي جانيرو بالبرازيل، عام (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م) تحت إشراف الأمم المتحدة ما يلي: «**ينبغي على الحكومات أن تتخذَ خطواتٍ نشطةً لتنفيذ برامجَ للتشجيع على تخفيفِ عبءِ العملِ الثقيل، الذي تقومُ به النساءُ في المنزل وخارجَه، عن طريق إنشاءِ مزيدٍ من دور الحضانةِ ورياضِ الأطفال، من قِبَلِ الحكومات، والسلطاتِ المحلية، وأصحابِ الأعمال، والمنظماتِ الأخرى ذاتِ الصلة، وتقاسُمِ الأعمالِ المنزليةِ بين الرجالِ والنساءِ بالتساوي**»[١].

نلاحظُ مما جاء في هذا التقريرِ أن المفهومَ الغربيَّ للتمكين لا يعبأُ بمبدأ التخصصِ الدقيق، بل يصلُ التمييعُ في ذلك إلى أدنى حدٍّ متمثلاً في عكسِ الأدوارِ أو تقاسُمِها بالتساوي !، ثم نلاحظُ أيضًا تناقضًا صارخًا بين المطالبةِ بإدماجِ المرأةِ في العملِ خارجَ المنزل ثم المطالبةُ في الوقتِ نفسِه - بالترحُم عليها - وتخفيفِ حِملِ العملِ «الثقيلِ» الذي تؤديه داخلَ المنزل ! .. أما كلمةُ «وخارجه» فجاءت هنا للتمويه فقط ! .. ويشجعُ التقريرُ المرأةَ أيضًا على أن تتخلى عن مهمةِ «بناءِ الإنسان» وتُلقي به إلى دورِ الإيواء التي ينبغي على الحكوماتِ أن تُكثر منها !

تحديدُ التخصص:

السؤال: هل المرأةُ مسئولةٌ عن دورٍ تخصصيٍّ مُعيَّنٍ في عملية التنمية؟

نعم .. إنها مسئولةٌ عن عاملين مهمين في عمليةِ التنمية، مُجملُهما: بناءُ ذاتِها، وبناءُ الإنسان، الأمرُ الذي يشير بقربٍ أكثر إلى المفهومِ الثاني للتمكين !.

وإثبات ذلكَ أن «التنميةَ» عند بعض أهلِ الاختصاص هي: الطريقُ إلى القضاءِ على «التخلفِ»، و«التحديثُ» هو: العمليةُ التي تتمُّ بها التنمية.

أما «التخلفُ» فهو: (حالةٌ من بطءِ عملياتِ التنميةِ في كافةِ مجالاتِ الحياة)، ونجدُ من ضمن عواملِ التخلف، بل من أهمها عاملَ: «تخلفِ العنصرِ البشري» ! (كنقصِ الكوادرِ الفنيةِ المُدَربة، وما يتصفُ به الفردُ من أميةٍ وجهلٍ ونقصِ الوعيَ واللامبالاة، وتخلفِ القيم، وغيرِها من سماتٍ وسلوكياتٍ تُجسدُ التخلفَ وتدعمُه).

وأما «التحديثُ» فهو: العمليةُ التي تتحققُ بها التنمية، وهو بمعنى (تحسينِ وتطويرِ الاقتصادِ والسلوكِ والثقافة، بحيث ينتقلُ المجتمعُ من نمطٍ تقليديٍّ إلى نمطٍ حديثٍ بما لا يتعارضُ مع الهويةِ والقيمِ الأصيلة).

ونجد أن من أهمِّ آلياتِ التحديث - كما عند أهلِ الاختصاص - عنصرَ: «تحديثِ الإنسان» !، (الإنسانِ الذي هو أهمُّ ثرواتِ الأمم وهو هدفُ التنميةِ ووسيلتُها، ولذا فإن أي علاجٍ للتخلفِ لا بُد وأن يبدأ من الإنسان، فتخلُّفُ المجتمعِ يرتبطُ بتخلُّفِ أفرادِه، ومظاهرُ التخلفِ سواءٌ الاقتصاديةُ أو الاجتماعية تتصلُ بنوعيةِ الأفرادِ وخصائصِهم، لذا فإن تحديثَ الإنسانِ مدخلٌ واسعٌ لمقاومةِ التخلف).

وبما أن التنميةَ تتطلبُ تعبئةَ الجهودِ المجتمعية .. وبما أن الأسرةَ أحدُ أهمِّ الجماعاتِ الاجتماعيةِ التي يتكون منها المجتمعُ وهي المؤسسةُ الأولى للتنشئةِ الاجتماعيةِ للفردِ في المجتمع، وفيها يقضي الفردُ معظمَ حياته، نجدُ أن المرأةَ يقعُ عليها العبءُ الأكبرُ والرئيس في عمليَتَيْ «تحديثِ الإنسان» و «القضاءِ على عنصرِ التخلفِ البشري» .. بحُكم احتكاكِها المباشرِ والتصاقِها الوثيقِ بولدِها لسنواتٍ ومراحلَ عدة من حياته خاصةً تلك التي تتكونُ فيها شخصيةُ الفردِ وتصوراتُه وتتشكلُ اهتماماتُه وتُصقَل مواهبُه وقدراتُه.

(وقد أثبتت كثيرٌ من الدراسات البحثيةِ الحديثة في هذا

المجال، أن هناك مشكلاتٍ عدة تحدث للأولاد: كالتخلفِ الدراسيِّ أو الانحراف - بمختلفِ صورهِ وأشكاله -، ترتبطُ إلى حدٍّ كبيرٍ بغياب الأم، وانشغالِها بالعمل خارجَ المنزل. فالأمُّ تقوم بدورِ الضبطِ الاجتماعيِّ (social control) - الذي يبدأ منذ الطفولة -، وتقومُ على حراسة قِيمِ المجتمعِ وتنميتِها، وتلك مهمةٌ ليست سهلة، خصوصًا أن أحدَ مقوماتِ الأمم يتمثلُ في قوةِ عقائدِها، واعتزازِها بثروتها من القيم والمُثُلِ العليا [٢]، وهذه من ركائزِ التنميةِ الرئيسة. فالمرأةُ بذلك تقوم على إعدادِ رأسِ المال البشريِّ اللازمِ لأية عمليةِ تنمية، ومن ثَم يكون لعمل المرأةِ في بيتها من الأهمية ما يعادلُ - بل يزيد - عن عملها خارجه)[٣].

وتؤكد ذلك الخبيرةُ في شؤون الأسرةِ الأمريكيةِ (هيلبن أندلين) حيث تقول: (إن فكرةَ المساواة - التماثُل - بين الرجل والمرأة غيرُ عمليةٍ أو منطقية، وأنها ألحقت أضرارًا جسيمةً بالمرأة، والأسرة، والمجتمع)[٤].

النتيجة: عدمُ دعمِ المفهومِ الأولِ للتمكين، والميلُ إلى دعمِ المفهومِ الثاني بما يحققُ معادلةَ (تمكينُ المرأة يؤدي إلى التنمية) !

وعيُ المرأة بحقيقةِ دورها المؤدي للتمكين

السؤال: ما الذي يدفع المرأةَ للقيامِ بدورها التخصصيِّ السابقِ على الوجه الأكمل؟

هنا تظهرُ الحاجةُ إلى «الوعي الاجتماعي» !

الوعيُ الاجتماعيُّ هو: (اتجاهٌ عقليٌ يمكّنُ الفردَ من إدراك ذاتِه وبيئتِه المحيطة، وهو بذلك يعني تجاوزَ الفردِ إدراكَ واقعِه أو واقعِ جماعتِه الصغيرةِ التي ينتمي إليها إلى إدراكِ واقعِ المجتمع على أنه حقيقةٌ كُليةٌ مترابطةٌ وليس مجرد وقائعَ منفصلةٍ أو أحداثٍ متناثرةٍ، وتُعدُّ درجةُ الوعيَ لدى الجماهيرِ مؤشرًا جيدًا للحكمِ على مستوى تقدمِ المجتمعِ أو تخلفِه).

ونجدُ أن من ضِمن مصادرِ تشكيلِ «الوعيَ الاجتماعي» لدى الفرد:

١- «التعليم»: (وموقف الإسلام من تعليم المرأة موقفٌ مشرِّفٌ لما يمثله العلم من قيمةً عُليا من قيمِ المجتمعِ الإسلامي، فإن الإسلام لم ينكر حقها في التعلم، ولم يعتبره أمرًا ثانويًا، بل اعتبر تعلُّمَها أمرًا واجبًا !

ولكن أيُّ علمٍ ذاك الذي يقصدُه الإسلام ؟ .. إنه العلمُ الذي يتفقُ مع طبيعةِ المرأةِ ووظيفتِها في الحياة، ويتفقُ مع فطرتِها واختصاصِها الذي اختصها الله تعالى به.

ولذلك فإن خططَ تعليمِ المرأة وتدريبِها يجبُ أن تتحددَ بتحديدِ الهدفِ الذي يرمي إليه المجتمعُ من وراءِ تعليمِها، وذلك بتعليمِها وتدريبِها بما يناسبُ طبيعةَ دورِها في الحياة، وبما يتلاءمُ مع فطرتِها، ويعينُها على فهمِ واقعِها وكيفيةِ التعايشِ معه ، ويحققُ التنمية).

> المفهوم العلماني قوامُهُ نظرتُه للتمكين على أنها منافسةٌ حيوانيةٌ بين شِقَّيّ الجنسِ البشري البقاءُ فيها للأقوى.. وكأنه قادمٌ من العصورِ الحجرية!

٢- «التثقيفُ الذاتي»: (الذي يمثلُ ركنًا أساسيًا في تشكيل الوعيَ الاجتماعي، حيث تقعُ بعضُ المسئوليةِ في تكوين الوعيَ على عاتق الشخصِ نفسِه، فيجب على كل مثقفٍ أن يقومَ بجهودٍ ذاتيةٍ تعملُ على تنميةِ إدراكِه الحقيقيِّ لواقع مجتمعِه عن طريقِ القراءةِ والاطلاعِ والبحث، ولا يكتفي بما يأتيه جاهزًا من خلالِ مؤسساتٍ أخرى كوسائلِ الإعلام أو المنظماتِ المهنيةِ والسياسية).

وإنَّ تمكينَ المرأةِ من تكوينِ «الوعيَ الاجتماعي» الصحيحِ بطبيعةِ تخصصِها ودَورِها ومسؤوليتِها؛ سيُمكّنُها من القيام ببناءِ ذاتها، والاضطلاعِ بدَورِها التخصصيِّ الفعالِ في «بناءِ الإنسان»، فتتحقَّقُ التنمية، وهذا ما يُمثله المفهومُ الإسلاميُّ للتمكين.

نقدُ المفهوم العلماني

نستنتج مما سبق أن المفهومَ الأول للتمكين: (حقُّ تولي المرأةِ لجميعِ المناصبِ التي يَشغلُها الرجلُ بالتساوي دون تمييز)، هو تصورٌ ساذجٌ وسطحيٌ جدًا .. كالمُنبَتِّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى ! .. قوامُهُ نظرتُه للتمكينِ على أنَّها منافسةٌ حيوانيةٌ قائمةٌ بين نوعي الجنس البشري.

بينما يظهرُ على الجانب الآخرِ المفهومُ الإسلامي في صورةِ مفهومٍ عميقِ النظر، ثاقبِ الفكر، ناضجِ الوعي، عظيمِ الهمة !

ونحن نتساءلُ لماذا يرتكزُ هذا المفهومُ العلمانيُّ للتمكين على هذه النظرةِ «الدونية» وهي الشعورُ بأن المرأةَ والرجلَ عدوان يصطرعان على البقاء !والرجلَ دائمًا هو الطرفُ القويُّ الغالبُ، والمرأةَ هي الطرفُ المهضومُ المغلوب الذي يجب نصرته !

لماذا الحديثُ عن التمكينِ والمساواةِ وكأن شِقَّي الجنسِ البشريِّ في صراعٍ وفي غايةِ البقاءُ فيها للأقوى؟!

أوَ ليست هذه المرأةُ أُمًّا، أو أختًا، أو ابنةً، أو زوجة؟! أليست شريكةَ الحياة .. يهُمُّ الرجلَ ما يهمُها ويُسعده ما يُسعدُها .. يُكملُ بعضُهما بعضًا ويقتسمانِ المعايشَ في الأرض التي تسعُ الجميع؟!

إن هذه النظرةَ وُلِدت في الأصل في مجتمعاتٍ قوامُها التفككُ والفرديةُ والانفصال، تصَوُّرُها للمجتمع وللعلاقةِ بين المرأةِ والرجلِ تصورٌ انفصالي، وكأن كلاً منهما كيانٌ مستقلٌ قائمٌ بذاته يجري في طريقٍ مستقلٍ لا يجمعهُما رافدٌ واحدٌ ولا مصبٌ واحد، بل كياناتٌ متعاديةٌ متنافرةٌ تفتقد النظرةَ الإنسانيةَ المتكاملةَ لنوعَي الجنسِ البشري!

تقول رئيسةُ الجمعيةِ النسائيةِ الفرنسيةِ (رينيه ماري لوفاجيه): (إن المطالبةَ بالمساواةِ الكاملةِ بين الرجلِ والمرأةِ تصل بهما إلى مرحلةِ الضياع، حيث لا يحصلُ أحدٌ من الطرفين على حقوقه)[٥].

وهذه عالمةُ أحياءٍ أمريكية (ميرا هنت)، تقول: (إن النساءَ الأمريكياتِ أصبحن يُصَبن بالشيخوخةِ في سنٍّ مبكرةٍ نتيجةَ صراعِهن لتحقيق المساواةِ مع الرجال. وتقول: إن هذا الاتجاهَ نحو الشيخوخةِ في أوساطِ النساءِ يبدو جليًا في كافةِ أجزاءِ الولاياتِ المتحدة، إلا أنه يُلاحظُ بصفةٍ خاصةٍ في المدن، حيث تدخلُ النساءُ العاملاتُ في منافسةٍ مباشرةٍ مع الرجال في عالمِ الأعمال).

وتقول اختصاصيةُ أمراضِ النساء (إليزابيث كاني) في تفسيرِ أسبابِ هذه الشيخوخةِ السابقةِ لأوانها:

(إنها ناجمةٌ عن تغييراتٍ هرمونيةٍ تطرأ بسبب ضغوطٍ غيرِ طبيعيةٍ تتعرض لها النساءُ للتفوقِ على الرجال، وأنها - أي هذه الشيخوخة - تسببُ انقطاعَ الطمث، الذي ينجمُ عنه جفافُ الجلد، وضعفُ الشعر، وترهل الثديين، وآلامُ المفاصل، والتعرقُ أثناءَ الليل، والعقم. وهناك - أيضًا - مخاطرُ متزايدةٌ من الإصابة بأمراضِ القلب، وهشاشةِ العظام، مما يؤدي إلى إصابتِها بالكسور) [٦].

هذا هو المفهوم العلماني لتمكين المرأة .. صراعٌ وحشي مخيف بين الرجل والمرأة .. البقاءُ فيه للأقوى !

هل الهدفُ من صيحاتِ المطالبةِ بتمكينِ المرأةِ هو تحطيمُ قداسةِ النصِّ القرآنيِّ : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ عند المسلمين؟!

دورُ امرأةٍ بدون أبناء !

إن للمرأةِ المسلمةِ دورَها في «التمكينِ لأمتها» في جميع مراحلِ حياتِها .. وتحت كل الحالاتِ الاجتماعيةِ التي تعيشها ..

فها هي مريمُ ابنةُ عمرانَ - عليها السلام - قبل ولادتِها لنبي الله عيسى عليه السلام كانت مكانتُها عند ربها (مقبولةً) و (متقبلةً..) وكان دورُها عظيمًا، انظر لقوله تعالى وهو يخاطبُها: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ وكأنها إشارةٌ للحثِّ على المشاركةِ الفعالةِ في المجتمع بأنواع التعبدِ المختلفةِ وممارسةِ العبادةِ بمعناها الواسع، وهذه المشاركةُ مع الراكعينَ الساجدينَ المتعبدينَ لله في الأرض بكل ما يحبه ويرضاه، وهي مشاركةٌ محددةٌ بإطارٍ سابقٍ في حياة مريمَ - عليها السلام - ألا وهو ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾!..حين تخاطَبُ المرأة في الإسلام بهذا الخطابِ العالي، بأسلوب الحثِّ على المشاركةِ في جماعةٍ وصورةٍ مجتمعية، بنصٍّ إلهي، فهذا في الواقع تكريمٌ رفيع، وإشارةٌ إلى المشاركة في عظائمِ الأمورِ وجليلِ المهماتِ التي تُحققُ التمكينَ للأمةِ وكلُّ ذلك بما يتناسبُ مع فطرةِ المرأةِ وخصوصيتِها.

﴿أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه﴾

إن تمكينَ المرأةِ من دَورِها التخصصيِّ والإنسانيِّ المجتمعيِّ الواعي بواقعِ أمتِها في حدود الشرعِ لهو بحق سبيلُ التمكين. ويلاحَظُ كيف قامت المحاولاتُ المستميتةُ لإبعادها عن هذا الدورِ بمحاولةِ جذبِها إلى نُظُمٍ اجتماعيةٍ أخرى كالنظمِ الاقتصاديةِ والسياسية.

إن مسؤوليةَ المرأةِ عن عملية «بناءِ الإنسان» تبدأُ من المراحلِ المبكرةِ جدًا بتأهيلِ الطفلِ نفسيًا وبدنيًا وعقليًا للمساهمةِ البنَّاءةِ في مجتمعه، والتخصصِ في الميادينِ المختلفةِ عن طريقِ تشجيعِه، وتوجيه طاقاتِه وقدراتِه، ومتابعتِه، وتعزيزِ ثقتِه بنفسِه، وتنميةِ وعيه، وبناءِ عقيدتِه وتهذيبِ أخلاقِه، وتوفيرِ الاطمئنانِ والسلامِ النفسيِّ له، لينطلقَ في دروبِ الحياةِ متسلحًا بهذا الزادِ العظيمِ مبدعًا ومبتكرًا ومفكرًا ومنتجًا، لا تُعرقلُه العوائقُ ولا الصدماتُ ولا عواملُ الإحباطِ والتثبيط، حيثُ استقى من أمِّه عُلوَّ الهمة، وقوةَ القلب، وعزةَ النفس.

إنَّ هذه المسؤوليةَ التي هي (صناعةُ الرجال) !! .. لهي منصبُ المرأةِ الحقيقيِّ المُغيَّبِ عن الوعي ..

وهو الهدفُ الذي ينبغي أن تَشحذ له همتَها، وتضعَه نَصبَ عينها، وتَردَ في سعيِها نحوه كلَّ ماءٍ يُسقيها، وتقطفَ من كل بستانٍ - تَمُر به - زهرةً تناسبُها.

إن أخوفَ ما يخافون منه تمكينُ المرأةِ من هذا المنصبِ الحساسِ المسئولِ، فيمارسون عليه عدةَ محاولاتٍ للتعتيمِ خبيثةٍ ! .. محاولين صرفَ نظرِها عنه بكل وسيلة .. أو إغراقَها في مناصبَ أخرى موهومةٍ لتتلهى بها .. وتتبناها .. مستنفدةً فيها قوتَها .. مهدِرةً ماء طاقتِها بوادٍ غير ذي زرع !

وادٍ يتراءى فيه السرابُ من بعيد .. جاءت تسعى إليه .. فمن الذي غرَّها؟! .. وما الذي جاء بها؟! .. حين أتت وقد كانت مَلِكـةً .. فنزلت إليه من علياءِ عرشِها وحَسِبتـهُ لُجَّـة .. ولم تكشف عن ساقيها فحسب .. بل أُغرقت في سرابٍ زائفٍ ما كان يومًا صرحًا ممردًا من قوارير!

نحو التمكين

إن تمكينَ المرأةِ من اعتلاءِ عرشِها المُضيَّعِ أو المسلوبِ .. وتمكينَها من الوعي التام بمنصبِ «مسئولٍ» أمام الله عز وجل عما وُكلَ إليها من مهمةٍ مقدسة، من بناءِ الإنسان وقيامِ الحضاراتِ وإنقاذِ البشرية .. وتمكينَها من منصبِ «مسئولٍ» عن التمكين ! .. لهو المنصبُ العالي الحساس، المثمِرُ للصلاح والنجاح والازدهار في كافةِ نواحي الحياة .. ومن ثَمَّ ازدهارِ مجتمعِها وأمتِها وأخذِها بأسبابِ القوةِ والسعادةِ والريادةِ والسيادةِ على البشرية !.

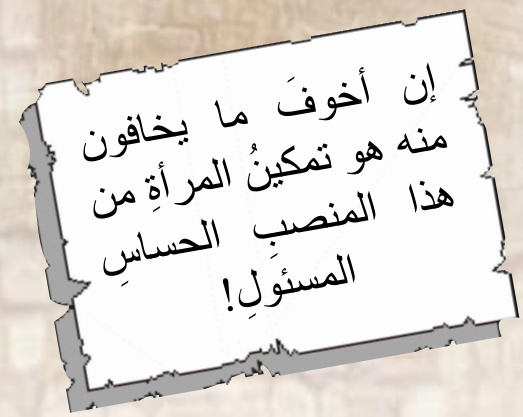

هوامش المقال

١. تقرير المؤتمر العالمي للبيئة والتنمية (١٩٩٢م)، ريودي جانيرو، الفصل ٢٤ (٣-د) ص٤٠٠،٤٠١.

٢. انظر: منهج القرآن في تربية المجتمع/ عبد الفتاح عاشور ص٣١٢ وما بعدها.

٣. قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية / د. فؤاد بن عبد الكريم - ص ٣٣٨.

٤. انظر: مجلة (الوعي الإسلامي)، العدد (٤٠٥) بتاريخ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ، الموافق أغسطس/سبتمبر ١٩٩٩م.

٥. انظر: وظيفة المرأة المسلمة في المجتمع: ص١٦٣.

٦. جريدة الرياض - العدد (١٠١١٢)، بتاريخ ١٤١٦/١٢/١هـ.

المراجع :

- علم النفس والاجتماع، د. أحمد النكلاوي - د. فكري شحاته/ وآخرون
- قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية / د. فؤاد بن عبد الكريم.
- ورقة نقاشية برلمانية حول الحقوق السياسية للمرأة الخليجية، المجلس الوطني الاتحادي، دولة الإمارات العربية المتحدة

قصص وطرائف

تحدث يوماً يحيى بن جعفر فقال: سمعت أبا حنيفة يقول: احتجت إلى الماء بالبادية فمر أعرابي ومعه قربة ماء فأبى إلا أن يبيعني إياها بخمسة دراهم فدفعت إليه الدراهم ولم يكن معي غيرها.. وبعد أن ارتويت قلت: يا أعرابي: ما رأيك في السويق (طعام من حنطة وشعير جاف) قال: هات.. فأعطيته سويقاً جافاً أكل منه حتى عطش ثم قال: ناولني شربة ماء؟ قلت: القدح بخمسة دراهم؛ فاستردت مالي واحتفظت بالقربة!!

أراد أحد الحكام أن يختار رجلاً ليستخدمه أميناً على أمواله وخزانته، فأذاع بياناً يدعو فيه الراغبين في تولي هذه الوظيفة إلى الحضور ..

وحضر إلى دار الحاكم عدداً كبيراً من طلاب الوظيفة، وكان طريقهم إلى مجلس الحاكم ممراً طويلاً مظلماً ليس به أحد من الحراس، وقد امتلأت جوانب الممر بالمجوهرات النفيسة ..

واجتاز أولئك الطلاب هذا الممر الطويل المظلم، حتى وصلوا إلى مجلس الحاكم، فقال لهم:

إن الامتحان الوحيد لشغل هذه الوظيفة، هو أن ترقصوا أمامي ..

فوجم جميع المتقدمين، ولم يرقص منهم أحد، إلا واحداً، تقدم أمام الحاكم يؤدي الامتحان!!

ذلك لأن الباقين كانوا قد ملأوا جيوبهم بالجواهر ..

في معركة القادسية فوجيء المسلمون في اليوم الأول للمعركة بظهور الفيلة في مقدمة جيش الفرس ،وكانت الفيلة بحجمها وصراخها المرتفع تخيف خيول المسلمين فتتراجع الخيل أمامها، وبسرعة تشاور قادة المسلمين، وأعدوا خطة للتغلب على الفيلة، فجاءوا في مقدمة جيشهم بجمال ضخمة وربطوا كل جملين معا وكسوهما بثوب واحد حتى بدت الجمال كأنها وحوش هائلة، وأخذ الرماة على الجمال يصوبون سهامهم الى عيون الفيلة، فأصيبت الفيلة بالذعر فألقت بالجنود من فوقها وعادت وهي تدهس كل من في طريقها من جنود الفرس، وبهذا انقلبت الهزيمة الى نصر.

الحمد لله الذي بكل كمال تفرَّد، نحمده أن وسِع حِلمُه من تعدَّى وألحد، فإن تاب وإلا أصلاه العذاب المُمَدَد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ذوي الكرامة والسؤدد، وعلى تابعيه على الصراط القويم والنهج الأحمد.

وبعد، فهذه محاجة للملحدين، الذين يقولون لا إله ولا دين، المعْظِمِينَ الفريةَ على رب العالمين، أكتبها لتسعف مناظراً من المسلمين، يشق بها بإذن الله أشداق المفترين، وخيرُ الجهاد قِراعُ الحجة والبراهين، فاللهَ أسألُ أن يجعلها لي حسنة يوم الدين، إنه جواد لا يضيع أجر العاملين.

إلى كل ملحد نقول: من أوجد الكون؟ إما أنه وُجِد من عدم أو أوجده موجد؟

إن قال: وُجد من عدم.

قلنا: الإيجاد فعل، والفعل لا يقوم إلا بموجود ضرورة. فبطل هذا الاحتمال.

فيلزمه أن يُقِرَّ أن قد أوجده موجد.

نقول: هذا الموجد إما هو من هذا الكون أو من خارج هذا الكون؟

إن قال: هو من هذا الكون.

قلنا: إذاً هو لم يكن قبل الكون أصلاً، وإنما وُجد بإيجاده. وعليه يرجع الكلام إلى امتناع أن يوجِدَ المعدوم شيئاً، ومرَّ بيانه. فبطل الاحتمال الثاني.

فيلزمه أن يُقِرَّ أن الخالق من خارج الكون.

نقول: هذا الخالق إما أنه واحد أو متعدد؟

فإن قال: هو متعدد.

نقول: ما الدليل على التعدد؟

يقول: لا دليل. فما الدليل على التفرد؟

نقول: ثبت وجود خالق قطعاً، وهذا محل اتفاق. ثم لا دليل على أكثر من ذلك، فلا يصح ادِّعاؤه. وهذه حقيقة التفرد.

يقول: عدم الدليل على الزيادة على الواحد هو دليل ظني على عدم الزيادة لا قطعي، لاحتمال دليل لا نعلمه. ومثل هذه المسألة لا بد فيها من قطع. فهل ثمَّ دليل مباشر على التفرد؟

نقول: أولاً هو قطعي لا ظني، لأنه لو كان ثَمَّ خالق لادَّعى، وما ادَّعى غيرُ الله لنفسه الخلق إلا بُهِت، أما الله سبحانه فقد دعا لنفسه بالخلق ولم يُنَازَعْ، فتعين قطعاً.

فإن قال: لا أقنع إلا بدليل مباشر.

نقول: مكابرة، لكن نتنزل معك. الأدلة كثيرة، نكتفي بواحد منها. وهو ضرورة كمال الخالق وتنزهه عن كل نقص.

قال: وكيف يدل هذا على تفرد الخالق؟

نقول: إن كان الخالق متعدداً فإما أن أحدهم اختلف - ولو مرة - في شيء ما، أو هم متفقون في كل شيء.

إن كان قد اختلفوا، فأيُّهم لم يمضِ قوله فليس برب، إذ القهرُ نقص، والنقص ممتنع في حق الخالق. فبطل هذا الاحتمال.

ومن مضى قوله، إن كان واحداً فقد تعين أنه وحده الخالق. وهو المطلوب والحمد لله.

فإن كان متعدداً، فهم متفقون لا اختلاف بينهم أبداً. وهي عين الصورة الثانية. وهي إن كانوا متفقين دائماً لم يَقهرَ أحدُهم الآخر.

وهنا نقول: أحدهم لا حاجة إليه، إذ قد أغنى وجود الآخر عنه. وعليه فليس أحد منهم رب، لأن الاستغناء عنه نقص في القيومية، والنقص ممتنع في حق الخالق. وعليه نرجع إلى الاحتمال الأول، وهو عدم الخالق، وسبق بطلانه.

نقول: فإذا لزِمَ على هذا الاحتمال - وهو تعدد الخالق - باطلٌ على كل حال، كان باطلاً، ضرورةَ أن ما لزم منه باطل فهو باطل.

ثم نقول: بقي أن يكون الخالق متفرداً ولا مانع منه، فيتعين.

يقول الملحد: !!!

وبعد هذا لا بد من ملاحظة أمرين:

الأول:

أن هذا الدليل العقلي مما أرشد إليه القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾[١] فهذا وجه حصر الاحتمالات.

وقال تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[٢]. وهذا دليلُ أنْ لم يدَّعِ الخلقَ أحدٌ غيرُ الله تعالى إلا بُهِتَ.

ومثله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[٣] فيه أن الله دعا لنفسه بالربوبية، وأنْه لا يُقدَّرُ أحدٌ دعى نفسه رباً إلا بهت بأن نتحداه بمخلوق حقير، فكيف بالسماوات والأرضين؟!

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[٤] وهذا دليل امتناع التعدد للزوم العدم أو المغالبة.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥]، وهذا فيه اشتراط كمال الصفات وكمال العزة في الرب الخالق.

الثاني:

عذوبة القرآن أقنعت العقول وشدت القلوب بأسلوب سهل مختصر، يفهمه العالم والجاهل. بينما كان أسلوب العقل أجاجاً يُرْغِم العقل إرغاماً، جافّاً يُقسّي القلبَ، صعباً لا يفهمه كل أحد. فتبارك الله الذي قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[٦]؟!

ومن هنا نعلم أن أقوم طريق للدعوة والاستدلال - ولو على الملاحدة - إنما هو كتاب الله تعالى، كما قال سبحانه:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[٧].

هوامش المقال

[١] سورة الطور: ٣٥ - ٣٦
[٢] سورة البقرة: ٢٥٨
[٣] سورة الحج: ٧٣
[٤] سورة الإسراء: ٤٢
[٥] سورة الروم: ٢٧
[٦] سورة المرسلات: ٥٠
[٧] سورة الفرقان: ٣٣

كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ

بقلم د.حسام الدين حامد

أتكون ضيافة كريمة

واستقبال حسن

بغير إرادة وحكمة

وقدرة وعلم

وكرم وملك ؟

كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

(لقد أنفقتُ ثروةً طائلةً في السفر إلى شواطئَ بعيدةٍ فرأيت جبالًا شاهقةً و محيطاتٍ لا يحدُّها حد، لكني لم أجد متسعًا من الوقت لأن أخطو بضع خطواتٍ قليلةٍ خارج منزلي لأنظر إلى قطرةٍ واحدةٍ من النّدى على ورقةٍ واحدةٍ من أوراق العشب).

هكذا قال أحدهم[1] نادمًا آسفًا ناصحًا بعدم السير في سبيلٍ نَدِم أن اغترّ بها فسلكها!!
ولأمورٍ كانت و كوائنَ أَمِرَت فقد جرت الأقلامُ في الحثّ على هذه الخطوات القليلة وتزيين سبلها!!
ولمّا نبتَ قومٌ يحلمون بطول السفر ويفخرون بتجاهل الندى فقد سُوِّدت الصفحات تبيّن للأعين مواقع نظرها!!
وكأني بالكائنات صائحةً (أفلا تبصرون؟! أفلا تعقلون؟!) والقوم في شوقٍ إلى جبالٍ شاهقاتٍ و محيطاتٍ بغير حدٍّ يحدّها!!
والقوم يسلكون السبل ويركبون المطايا لاهين عن عظيم الحكمة ولطيف الصنعة فيما أودِعته هذه الخلائق من النِّعَم والعطايا!!

وقد رأيت الكون الفسيح – بجباله ومحيطاته وأرضه وسماه – قد أحسن استقبالي على غير موعدةٍ بيني وإياه!!

فهذه السماء ازدانت بنورٍ وسراج، وزُيِّنت للنّاظرين بالمصابيحِ والأبراج، والعجب من ذا الحسنِ وذاك الكرم، فالنجوم كحباتِ لؤلؤٍ تلمع في الظُّلم، جُعِل نظمها هداية للسائرين، وكان نورها أنسًا للساهرين، وبات حسنها إلهامًا للناظمين، وقام أفولها عبرةً للناظرين، وتأملت شأنَ الليل! فيه هَنِئَ النوم، وصفا الفكر، وشأنَ النهار! فيه نشط القوم، وطُلِبَ الرزق، وشأنَ الكافرين! ينظرون وهم لا يبصرون، ويتنعمون وهم لا يشكرون.

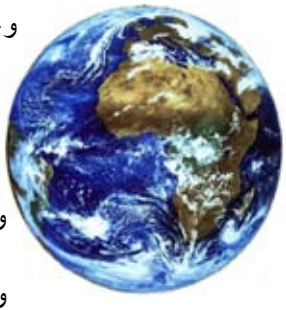

وعجبت لكواكب «المجموعة» جعلوا بعضها من بعض، مالها خلتْ من مقومات حياةٍ قد اجتمعت لهذه الأرض، من غلافٍ يحفظ لها ما فيها، ويصد عنها عواديها، وفصولٍ أربعة تعاقبت وانتظمت، وهيئةٍ كالكرة بسط سطحها ومدّت، وجبالٍ شامخاتٍ أمسكت الأرض فما اضطربت!
وتأملتُ تلك الأرض قد جُعلت كفاتًا، حملت الناس أحياءً وضمّتهم رفاتًا، و يسرت جاذبيتُها اللطيفة لمن عليها السير على وهادها، ووُسِّعَتْ للضاربين في الأرض مناكِبُها وفُجِّجَت سُبُلُها، فحَسُنَت فراشًا ومهادًا، وصَلُحَت هجرةً ومقامًا!!

وأخذني التّفكر في شأن الكون ما أخذني، حتى جذبتني دقات الساعة إلى نفسي وما نسيته من شأني!!
- أوليس بيني وبين صاحبي لقاءٌ قد حانت ساعته؟!!

فانطلقت لِلُقياه، وبينما أسير إذ نظرت إلى الأرض فاستوقفتني بذرة، بعثت حالها في نفسي فكرةً بعد فكرة، فما إن يغمرها الماء ويمسها شعاع الشمس وتحتضنها التربة حتى تفشي سر نموها، وتهمس للأرض الصلبة فتلين لمستدقِّ عروقها، وتمضي في الأرض بجذرها وتشُقُّ إلى السماءِ طريقها، فإذا بها شجرة قد استغلظت واستوت على ساقها، طيبةٌ ذات حسنٍ وجمالٍ مُعْجِب من يزرع، ثم يأتي الطفل الضعيف يقطف ثمرها فلا تتأبى عليه ولا تتمنع، وفي أثناء سيري كانت الرياح تجري والسحاب يسري والمطر يروي .

ونظرت في جوّ السماء فرأيت طيرًا قصِيًا في عُلُوِّه، عصِيًا في سُمُوِّه، فسبّحتُ من يسّر صيده، وقرّب بعده، وطيّب طعمه، والتفتُّ إلى ما يدُبُّ على الأرضِ من الحيوانِ، فرأيت ما في الأَنعامِ من الإنعامِ، وما بها من نفع نقلةٍ وملبسٍ وزينةٍ وطعام، وما يخرج منها من لبنٍ خالصٍ سائغٍ شرابه، قد تيسّر السبيل لطلابه، وسمعت طنين نحلةٍ تسلك السبل آكلةً من كل الثمر، فيخرج منها شرابٌ مختلف ألوانه فيه شفاءٌ للبشر.

ثم سرتُ خطواتٍ حتى وقفت على الماء العذب والمالح يلتقيان فلا تختلط الأمواه، وماء النهر ذهب زبَدُه ومكث نفعه، وماء البئر قريب مناله بشد شطانِه، والبحر الأُجاج يُحلَّى ماؤه ويفصله الإنسان عن ملحه، وذكرني ما في البحر من لحم طريّ بتلك الحكاية الجارية[٢]، وقول صاحبها (واللهِ ما طيّبتَه ولا طيّبه

الطَّباخ، ولكن طيّبته العافية!)، وعلى ذكر الطباخ فإن ناره ما أنشأ هو شجرتها ولا جعل فيها النار مستَكِنَّةً تُوْرَى، ولم يكن يومَ جُعِلت كذلك شيئًا مذكورًا.

ومررتُ بقطَعٍ من الأرض متجاورات، هذه قطعة خصبة تُحْرث، وتلك كلأٌ ومرعى ومرتَع، وثالثةٌ منْجَمٌ ومعدِن، ورابعةٌ تُبْنى وتُسْكَن، وخامسةٌ مَرَاحٌ واستراحة، وأخرى مقصدٌ لسفرٍ وسياحة!!

ثم بلغت بيت صاحبي فأحسن استقبالي، وجلسنا – كعادتنا - أمام المدفأة، ولم يحرك كرمُ ضيافتِه دهشتي ولقد أرضاني، و لا أثار تعجبي ولقد أعجبني، ذلك أني أعرف أن صاحبي حكيمٌ ذو إرادةٍ للخير ينفق - على علمٍ - من سعته!!

وحدثني صاحبي – فيما حدثني - عن بيته الجديد، فسألته عن بنائه : أمن طوبٍ ما أوجد مادته؟! أم من خشبٍ ما زرع شجرته؟! أم في كهفٍ ما أرسى جبله؟! أم من أي شيء هو؟!

واستغرب صاحبي أسئلتي عن بناء بيته، فكيف لو سألتُ عن تأثيثه وفرْشِه؟!!

ودخلت علينا ابنته الصغيرة وقد ازينت بالحليّ، فكانت – على صغرها - رمزًا لكنوز البحر وخبء الأرض، ذهبٌ ولؤلؤ، وحجرٌ كريم، وجوهرٌ فريد، ولمّا أخبرت الصغيرة بجمال ذوقها، تبسمت فازدادت الجواهر حسنًا على حسنها، وشرعت تحدثني عن ذوقها في ملابسها، وكيف هي تحب القطن وتكره الصوف، وتفضل الجلد وتبغض الفراء، وملأت ضحكتها الغرفة وهي تحدثني عن ثوبها المرصع بالريش، وتؤكد - ناظرةً لأبيها - أنه كان من اختيارها!!

وجلست الصغيرة إلى جوارنا تلعب بعروستها، بل إنها – فيما يبدو – قد تبنتها، فرأيتها – مرةً أخرى – رمزًا لبقاء هذا النوع الإنساني بما كانت وما ستكون، وانصرفت من عند صاحبي مسرورًا، داعيًا لبيته أن يظل في كنف المودة والرحمة!!

كنت قد تعبت من المشي فبحثت عن مَرَاكِبِ النَّقل، فوجدتها من مادة هذا الكون وعنصره، حينئذٍ مرّ بجواري هذا الفرس الهادر، يسير في وداعة قطةٍ، مربوطًا بحبلٍ ملجمًا بالحَكَمَة، وطرف الحبل بيد طفلٍ قد استوى على ظهره، كان الطفل يقود الفرس وهو فرحٌ مسرور، ولعله يسأل : من جَعل الوحش مستأنسًا ويسّر قِياده؟!

عدتُ وقد رأيت الكون - بجباله و محيطاته – قد أحسن استقبالي – وإياكم - بغير اتفاقٍ سابق!!

وما عجبت من شيءٍ عجبي ممن ينظرون معرضين و يذهبون في الغيّ سادرين!!

وإني مذ عرفتهم لم أجد لهم جوابًا مقنعًا ولا ردّا شافيًا حين أتساءل عن كرم تلك الضيافة وحسن ذلك الاستقبال:

فأية كرامةٍ معنويةٍ للإنسان على عناصر هذا الكون؟! وأية فضيلةٍ له على الأنعام إن اعتمدنا النظرة المادية؟!

أيكون الأمر من «تطور الأكوان» و «نشوء الكواكب» و «انتخاب النجوم» لخدمة الإنسان؟!

أهي الدنيا بما فيها اتفقت على إعانة الإنسان في رحلة « البقاء للأصلح»؟!

أيكون حفظ النوع من الفناء ولا يكون حفظ العقول من الضياع بين دعاوى المدلسين والجهلاء؟!

أتكون تهيئة الأرض وإعدادها للحياة ثم يُترك الناس بين مذاهب شتى يبحثون فيها لقلوبهم عن الحياة؟!

ألا يكون من هذا الكرم شيءٌ يتوجه لروح الإنسان وعقله كما توجه لجسده واستغلال عقله لخدمة جسده؟!

أيكون الشأن في التنفس والأكل والشرب والزواج والتزين واللبس دون التفات إلى أسئلة كبرى تدور في النفس؟!

أيكون النظام في النوم واليقظة والمعاش وعدّ السنين والحساب ولا يكون شيءٌ في تنظيم علاقات الناس وتعاملهم؟!

أزراعةٌ ورعيٌ و تعدينٌ و سياحةٌ وبناءٌ وتدفئةٌ وسكنى وسترٌ ويسر اتصالٍ.. دون شيءٍ يبين سر هذا التيسير وذاك التسخير؟!

دع عنك الآن السؤال:

أتكون ضيافةٌ كريمةٌ و استقبالٌ حسنٌ بغير إرادةٍ و حكمةٍ وقدرةٍ و علمٍ وكرمٍ وملك؟!

هوامش المقال

[١] قالها الشاعر الهندي (طاغور) ناصحًا المخرج الهندي ساتياجيت راي.. (ماذا علمتني الحياة؟!، د.جلال أمين، ص٨٤).

[٢] أصل الحكاية أن الحجاج بن يوسف دعا أعرابيًا للطعام فلما دخل الأعرابي على الحجاج قال الحجاج: اغسل يديك ثم تغدّ معي! فقال الأعرابي: إنه دعاني من هو خير منك. فقال الحجاج: ومن هو؟! فقال الأعرابي: دعاني إلى الصوم فأجبته. فقال الحجاج: في هذا الحر الشديد؟!! فقال الأعرابي: نعم صُمت ليوم هو أشد حرًا منه. قال الحجاج: فأفطر وصم ليوم غد!! فقال الأعرابي: إن ضمنت لي البقاء إلى غد! فقال الحجاج: ليس ذلك إليّ. فقال الأعرابي: فكيف تسألني عاجلًا بأجلٍ لا تقدر عليه؟!! فقال الحجاج: إن طعامنا طيب. قال: لم تطيبه أنت ولا الطباخ، إنما طيبته العافية. (الدولة الأموية، د.على الصلابي،١\ ٦٩٧، وعزاها إلى البداية والنهاية).

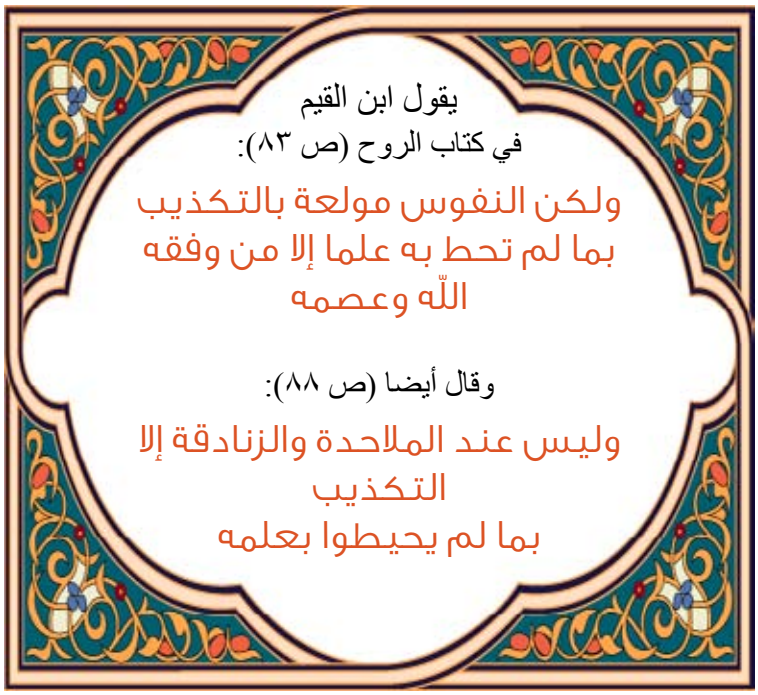

قال ابن القيم:

ومن فهم هذا فهم مسألة المعاد وما جاءت به الرسل فيه، فإن القرآن والسنة إنما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله، لا جعلِه عدما محضا وإعدامه بالكلية.

فدل على تبديل الأرض غير الأرض والسماوات، وعلى تشقق السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وانتثار الكواكب، وسجر البحار، وإنزال المطر على أجزاء بني آدم المختلطة بالتراب، فينبتون كما ينبت النبات، وترد تلك الأرواح بعينها إلى تلك الأجساد التي أحيلت ثم أنشئت نشأة أخرى، وكذلك القبور تبعثر، وكذلك الجبال تُسيَّر ثم تُنسف وتصير كالعهن المنفوش، وتقيء الأرض يوم القيامة أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة، وتميد الأرض، وتدنو الشمس من رؤس الناس.

فهذا هو الذي أخبر به القرآن والسنة. ولا سبيل لاحد من الملاحدةِ الفلاسفةِ وغيرهم إلى الاعتراض على هذا المعاد الذي جاءت به الرسل بحرف واحد.

وإنما اعتراضاتهم على المعاد الذي عليه طائفة من المتكلمين أن الرسل جاؤوا به! وهو: أن اللّه يعدم أجزاء العالم العلوي والسفلي كلها، فيجعلها عدما محضا، ثم يعيد ذلك العدم وجودا.

ويا ليت شعري! أين في القرآن والسنة أن اللّه يعدم ذرات العالم وأجزاءه جملة ثم يقلب ذلك العدم وجودا؟!

وهذا هو المعاد الذي أنكرته الفلاسفة، ورمته بأنواع الاعتراضات وضروب الإلزامات.

واحتاج المتكلمون إلى تعسف الجواب وتقريره بأنواع من المكابرات.

وأما المعاد الذي أخبرت به الرسل فبريء من ذلك كله، مصون عنه، لا مطمَعَ للعقل في الاعتراض عليه، ولا يقدح فيه شبهةٌ واحدة

مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٥٢- ٣٥٣)

قال ابن القيم:

وأنت مع العالِم في تعب يُعْقِبُ كُلَّ الراحة،
ومع عارف هؤلاء الملاحدة في راحة وهمية
تُعْقِبُ كل تعب وخيبة وألم.
كما ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد أن المسيح
عليه السلام كان يقول:
(على قدر ما تتعبون ههنا تستريحون هنالك،
وعلى قدر ما تستريحون ههنا تتعبون هنالك).

فالعالِم يُحذرك، ويمنعك الوقوف حتى تبلغ المأمن.
وعارف الملاحدة يوهمك الراحة من كد المسير
ومؤنة السفر، حتى تؤخذ في الطريق

مدارج السالكين (٣/ ١٦٧-١٦٨)

يقول ابن القيم
في كتاب الروح (ص ٨٣):

ولكن النفوس مولعة بالتكذيب
بما لم تحط به علما إلا من وفقه
اللّه وعصمه

وقال أيضا (ص ٨٨):

وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا
التكذيب
بما لم يحيطوا بعلمه

قال ابن القيم:

وهذه الأصول التي عارضوا بها الكتاب والسنة تشتمل على الكذب والفرية في مسائلها ودلائلها:

- كأصول الملاحدة من الفلاسفة والدهرية النافين لما أخبر الله به من أصول الإيمان الخمسة.
- وأصول الجهمية المناقضة لما أخبر به من أسمائه وصفاته وأفعاله.
- وأصول القدرية المعارضة لما أخبر به من عموم قدرته ومشيئته.
- وأصول الملاحدة الاتحادية التي رفعت العقل والنقل والحس، وأبطلت الخلق والأمر والنبوة والرسالة والثواب والعقاب.

وأصول هؤلاء كلهم أصول الزندقة والاتِّحاد المناقضة للعقل والدين .

الصواعق المرسلة
(٤/ ١٢١٢ - ١٢١٣)

قال ابن تيميه رحمه الله:

ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله -عليه الصلاة والسلام- بعقله، وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم، والحلاوة والهدى، وشفاء القلوب، والبركة، والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا نظماً، ولا نثراً.

من كتاب/ اقتضاء الصراط المستقيم

قال ابن تيميه:

كل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم،
لم يكن أعطى الإسلام حقه،
ولا وفّى بموجب العلم والإيمان

(درء التعارض ١/ ٣٥٧)

قال ابن تيميه رحمه الله
في بيان سبب من أسباب النجاة من الفتن:

فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عزّ وجلّ، فيكون حبه لله، ولما يحبه الله، وبغضه لله، ولما يبغضه لله.

(مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٠١)

جميع الحقوق محفوظة لموقع منتدى التوحيد

لتواصلكم واقتراحاتكم زوروا منتدانا

العدد الأول

WWW.ELTWHED.COM